المبحث السابع:

جهود صلاح الدين الأيوبي في توحيد الجبهة الإسلامية

كانت وفاة نور الدين مفاجأة لم يكن أحد ينتظرها، فبينما دمشق تحتفل معه بختان ولده في عيد الفطر سنة 569هـ؛ إذ بالبلاد الإسلامية كلها تفتقده بعد أسبوعين مرة واحدة، وما عرف الخبر حتى انطلقت من عقالها كل الأطماع لا في أسرة نور الدين الأقربين فقط، ولكن في أمرائه وقادته العسكريين أيضاً، وفي الفرنج المحتلين على السواء، كُلٌّ سعى ليستفيد أقصى الفائدة من غياب الرجل الذي كان يمسك حتى وفاته بمصير المنطقة والفرنج جميعاً بين يديه بمهابة وشجاعة وبتقى وبُعد نظر، ترك نور الدين دولة مترامية الأطراف تمتد من برقة واليمن إلى الشام والجزيرة والموصل، وإذا استعرضنا شريط الأحداث عقب وفاته مباشرة؛ وجدنا أن الصراع بين القوى قد بدأ، وأن مجموعات القوى تصرَّفت كل منها حسب قوتها[1].

فالأسرة الزنكية في الموصل:

- كان ممثلها ونائب نور الدين فيها سيف الدين غازي - وهو ابن أخيه - وكان قد جمع جيشه لمعاونته في حرب الفرنج، فإذا به يتجَّه إلى "نصيبين" فملكها، ويرسل الشحن إلى "الخابور" فيملكه ويقطعه، ثم يسير إلى "حران" فيحاصرها أياماً، ويملكها بعد أن استسلم حاكمها "قايماز الحراني" مملوك نور الدين، ثم يحاصر "الرها" ويملكها من الخصي خادم نور الدين، ثم يرسل إلى الرقة من يتسلمها على الفرات، وإلى "سروج". وهكذا أضحت مدن الجزيرة بيده، عدا "قلعة جعبر"، فقد أعاد المكوس وتسامح في أمور اللهواء والشراب [2].

والأمراء في دمشق تمسَّكوا بالطفل الملك

الصالح الذي خلفه صلاح الدين وعمره 11سنة واتفقوا أن يكونوا يداً واحدة، وجعلوا الأمير ابن المقدم كالرئيس على جماعتهم حين أعطوه أتابكية الطفل، أي الإشراف على تربيته [3].

والأمير شمس الدين بن الداية مع أخويه كان يحكم حلب

---

(1) صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد ص 145.
(2) صلاح الدين الفارس المجاهد ص 46، كتاب الروضتين (327/2).
(3) صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد ص 146.

فبقي مقطوعا ما بين الزنكيين في شرقه ومجموعة دمشق. وإن كان صديقاً لصلاح الدين وميله معه [1].

وأما الفرنج فانتهزوا الفرصة فوراً، وهاجموا

حصن بانياس عند مدخل الجولان الجنوبي "آخر شوال سنة 569هـ/مايو 1174م" وأرسلت أرملة نور الدين - بشجاعة تفوق شجاعة معظم النساء - على قول وليام الصوري - تطلب رفع الحصار، ومنح البلد هدنة مؤقتة ودفع مبلغ كبير من المال، ورفض الملك واستمر يحاصر بانياس أسبوعين، ودمَّر فيها آلاته، وأخيراً قبل المال مع إطلاق سراح الفرسان الصليبيين الأسرى وعاد ليموت بعد ذلك ويتولى بدلاً منه ابنه المجذوم الفتى بغدويه الرابع [2]. وهذه هي رواية الفرنج. أما المصادر العربية فتذكر أن ابن المقدم خرج إليهم بوصفه الأتابك وهادنهم على أن يؤدي مبلغاً ضخماً من المال، ويطلق الأسرى الفرنج ويهادنوه، ويبدو بوضوح أن زوجة نور الدين، وهي ابنة الأتابك أنر، كانت ذات نفوذ في دمشق وبمكان رئاسة بوصفها أم الملك، ولهذا كانت الرسالة باسمها والأتابك ابن المقدم هو قائد الجيش والمدّبر لأمور الدولة، وقد اتفّق مع الفرنج على الهدنة وقطع مواد الحرب والفتنة [3].

وأما صلاح الدين في مصر

فقد وصله الخبر عن طريق الفرنج، فلم يصدقه، وكتب إلى نور الدين يقول: ورد خبر من جانب العدو اللعين عن المولى نور الدين أعاذ الله تعالى فيه من سماع المكروه، ونّور بعافيته القلوب والوجوه، فاشتد به الأمر وضاق الصدر.. فإن كان العياذ بالله قد تم.. فما رتب الملوك ممالكها إلا لأولادها. فالله الله أن تختلف القلوب والأيدي فتبلغ الأعداء مرادها، ولا تنازعوا فتفشلوا فالعداوة محدقة بكم من كل مكان، ولهذا البيت منَّا ناصر لا نخذله، وقد كانت وصيته إلينا سبقت بأن ولده القائم بالأمر وسعد الدين كمشتكين بين يديه فإن كانت الوصية ظهرت وقبُلت وإلا فنحن لهذا الولد يد على من عاداه، وإن أسفر الخبر عن معافاة الغرض المطلوب [4] فورد عليه الكتاب من أمراء دمشق بتوقيع الملك الصالح يقول: أطال الله بقاء سيدنا الملك الناصر السيد الأجل وعظَّم الله أجرنا وأجره في والدنا، السيد العادل، وقد اجتمع أمراء الحضرة على البيعة المؤكدة

(1) المصدر نفسه ص 146.
(2) وليام الصوري 973/02) صلاح الدين الفارس المجاهد ص 146.
(3) كتاب الروضتين نقلاً عن صلاح الدين ص 146.
(4) صلاح الدين الفارس المجاهد ص 147.

والإيمان المغلظة للملك الصالح وما ها هنا ما يشغل السر غير شغل الفرنج خذلهم الله، فما كان اعتماد مولانا السيد الملك العادل رضي الله عنه إلا عليه - أي صلاح الدين - وسكونه إلا لمثل هذا الحادث الكارث، وقد أمَّله ليومه وغده ورجاه لنفسه وولده [1]... وهل سوى السيد الأجل الناصر من ناصر [2]. وكان أمراء دمشق يريدون تطمين صلاح الدين من جهة ليبقي بعيداً وتحديد عمله بقتال الفرنج فقط من جهة أخرى، لأن نور الدين كلفَّه ذلك وكانوا يعرفون قوته ويخشون تدخله. أما صلاح الدين فجلس للعزاء ثلاثة أيام، وكتب للملك الصالح يعزّيه وجاء في آخر الكتاب: وأما العدو خذله الله تعالى فوراءه من الخادم من يطلبه ليل نهار إلى أن يزعجه في مجاثمه، وذلك من أقل فروض البيت الكريم أُصدر هذه الخدمة يوم الجمعة رابع ذي القعدة وهو اليوم الذي أقيمت فيه الخطبة بالاسم الكريم... وأشبه يوم الخادم أمسه في الخدمة ووفي مالزمه من حقوق النعمة، وجمع كلمة الإسلام والله تعالى يخلد المولى الملك الصالح ويصلح به وعلى يديه ويوفق الخادم لما ينويه من توثيق سلطانه ومضاعفة ملكه [3]. وقد جاء في كتاب آخر بعد ذلك: الخادم مستمر على ما بدأته من الاستشراف لأوامرها والرفع لكلمتها، والإيالة لعسكرها والتحقق بخدمتها، والترقب لأن يؤمر فيمتثل ويكلف فيحتمل، وأن يُرمى به في نحر عدوه فيتسدد، ويوفي أيام الدولة العالية يوما يكشف الله فيه للمولى ضمير عبده [4]. وضرب السكة باسم الملك الصالح، وأرسل له منها وخطب باسمه على المنابر [5].

مراقبة صلاح الدين للأحداث في الشام والعراق:

بقي صلاح الدين يراقب الأحوال في الشام والعراق، وحين سمع أخبارها وهو في مصر صار يكتب محتجاً تارة وناصحاً أو مشيراً تارة أخرى:

سمع بما اقتطعه سيف الدين غازي من مملكة عمه، فأرسل إلى الملك الصالح يعاتبه، إذ لم يُعلمه بذلك ليحضر في خدمته ويرد سيف الدين عن مقصده [6].

وسمع بهجوم الفرنج على باياس والهدنة التي اشتراها ابن المقَّدم منهم بالمال الكثير؛ فاستنكر المعاهدة وكتب إلى جماعة من الأعيان وإلى ابن المقدم وإلى القاضي

---

(1) كتاب الروضتين (587/2).
(2) المصدر نفسه (586/2) صلاح الدين الفارس المجاهد ص 147.
(3) صلاح الدين المجاهد والملك الزاهد ص 148.
(4) كتاب الروضتين نقلاً عن صلاح الدين المجاهد ص 148.
(5) الباهر ص 162 - 163 صلاح الدين المجاهد ص 148.
(6) الكامل في التاريخ (405/11، 406).

ابن أبي عصرون في دمشق يقول: لما بلغني وفاة المرحوم خرجت من مصر لقصد الجهاد وتطهير البلاد من أهل الكفر، فبلغني حادث الهدنة المؤذنة ببذل الإسلام.. وسيدنا الشيخ أولى من جرَّد لسانه في إنكار هذا الأمر، فإنه بلسانه تُغمد السيوف وتتجرَّد الحقوق [1].

وأدرك صلاح من هذا مبلغ ضعف أمراء دمشق. وسمع بالخلاف ما بين أمراء دمشق وابن الداية في حلب، ثم تمكَّن القائد شاد بخت - قائد قلعة حلب - من التآمر مع ابن المقَّدم، ونقل الملك الصالح إلى حلب، وتدبير مؤامرة قبضوا بها على ابن الداية غدراً - بعد أن وعدوه بأتابكية الدولة - وعلى أخويه وأودعوهم السجن بعد ضربه بالأيدي والأرجل، ثم غضب ابن المقدم أخيراً وهو بدمشق، فكتب إلى صلاح الدين يستدعيه للتدخل ومكث صلاح الدين ثلاثة أشهر ونصف الشهر في مصر بتربَّص 15/شوال حتى مطلع صفر سنة 571هـ، ولم يكن يكلَّ من المكاتبة، وهو مشغول بأمرين: حركة كنز الدولة في الداخل، والهجوم النورماندي الصقلي على الإسكندرية وكلاهما خطر كبير، وحين انتهى وجد أن حادثة القبض على ابن الداية دليل أخير على أن الأمراء في الشام سائرون مع أنانيتهم ومصالحهم وتنافساتهم ولم يرعوا رغبات نور الدين نفسه.

وكان صلاح الدين يعتقد بأن ولد نور الدين يتولاه بعد أبيه مجد الدين بن الداية، وإخوته في حلب وهم أصدقاؤه وحلفاؤه [2] ويطمئن إليهم ولكنَّ ضربهم واعتقالهم غدراً جعله يقول: أنا أحق برعي العهود والسعي المحمود، فإنه إن استمرت ولاية هؤلاء تفرَّقت الكلمة المجتمعة، وانفردت مصر عن الشام وطمع أهل الكفر في بلاد الإسلام وكتب إلى ابن المقدم وهو صاحب دمشق ينكر ما أقدموا عليه من تفريق الكلمة وكيف اجترؤوا على أعضاء الدولة، وأركانها، وأنه يلزمه أمرهم وأمرها ويضُّره ضرُّهم وضُّرها، فكتب إليه ابن المقَّدم يردعه عن هذه العزيمة ويقبح له - التفكير بذلك - ويقول: لا يقال عنك إنك طمعت في بيت غرسك ورَّباك وأسسَّك، وأصفى مشربك وأجلى سكونك لملك مصر، وفي دسته أجلسك فيما يليق بما لك ومحاسن أخلاقك وخلاَّنك غير فضلك وأفضالك [3].

ووقع صلاح الدين في حيرة بين الاستجابة لواجب الوفاء لبيت نور الدين وبين نار

(1) كتاب الروضتين (589/2)، صلاح الدين المجاهد ص 149.
(2) سنا البرق (168/1) صلاح الدين ص 149.
(3) سنا البرق (234/1) صلاح الدين ص 150.

الاتهام بالطمع فيه، ويبدو أن كثرة المكاتبات التي وصلته من أكابر الشام ووجوهه من دمشق وشيوخها حسمت حيرته وقرر التدخُّل، ولو لم يفعل والناس قد نقلوا آمالهم من نور الدين بعد وفاته إليه، وعلقّوا عليه الآمال، لم يكن صلاح الدين اليوم شيئاً مذكوراً، وكان اسماً من أسماء الأمراء العابرين في عصره [1].

لم يكن صلاح الدين منذ أواخر عهد نور الدين مجرَّد قائد بارز بين أمرائه، ولكنه أضحى مؤسسة عسكرية تابعة له، وأسرة متعاونة من القادة؛ كان فيها أولاً شيركوه ونجم الدين أيوب، ثم صلاح الدين وخاله شهاب الدين الحارمي، ثم إخوته، وبرز منهم توران شاه وطغتكين وأبو بكر - العادل - وبوري، وبعض أبناء أخي صلاح الدين، ابن عمه، بالإضافة إلى بعض أولاد صلاح الدين: الأفضل علي والظاهر غازي والعزيز عثمان، فهم ثلاثة أجيال من القادة وصنعوا أنفسهم في خدمة نور الدين وحملوا لواءه، وقد جمعهم نور الدين بنفسه بعضهم مع بعض ليتعارفوا بسبب رابطة القربى بينهم وكان نور الدين واثقاً من صلاح الدين ومن تعاونهم معه وسيطرته عليهم كمجموعة في مصر، وواثقاً أيضاً من حسن تأتّيه للأمور [2].

ولم تكن قوة صلاح الدين في هذا وحده، ولكنها كانت أيضاً في غنى مصر ومواردها من الاقتصاد ومن الشر وكانت الأرض التي صارت إقطاعه أوسع وأكبر في المدى والغنى من مملكة نور الدين الأصلية نفسها في الشام والجزيرة كانت إمارته وحدها ولها من برقة إلى النوبة إلى اليمن، وهكذا كان وضع صلاح الدين لا يشبه وضع القادة الآخرين لنور الدين، ويفوقهم قوة وغنى ومكانة وأولاد الداية الثلاثة لم يبرز منهم غير واحد، ولم تتح له الفرصة التي أتيحت لصلاح الدين؛ الذي كانت مصر بمثابة المجمع أو المختبر الذي برزت فيه قدرات الأسرة الأيوبية وكان صلاح الدين يدرك هذا جيداً كما يدركه الأمراء الآخرون[3].

وحين اجتمع أمراء دمشق على التعاون يداً واحدة ومنابذة صلاح الدين: الشيخ إسماعيل خازن المال، والحسين الجراحي، وشهاب الدين العجمي والطواشي حسام الدين ريحان، وعلى رأسهم ابن المقدم بحضور القاضي كمال الدين الشهرزوري، وقال القاضي: قد علمتم أن صلاح الدين صاحب مصر من هو مماليك نور الدين ونوابه والمصلحة أن يشاور في الذي نفعله ولا نخرجه من بيننا فيخرج عن طاعتنا ويجعل ذلك

(1) صلاح الدين المجاهد والملك الزاهد ص 150.
(2) صلاح الدين المجاهد والملك الزاهد ص 151.
(3) المصدر نفسه ص 151.

حجة علينا، وهو أقوى منا لانفراده بملك مصر.. أخرجنا وتولّى هو خدمة الملك الصالح.. فلم يوافق أغراضهم هذا القول، وخافوا أن يدخل صلاح الدين ويخرجوا [1]... وظنُّوا أنه إذا دخل البلاد أخرجهم منها [2] وتفرّغ صلاح الدين من مهامه في مصر بعد أن أساءه وأغضبه ما كان يجري، وبخاصة ما جرى بحلب من شقاق سنّي - شيعي، وغدرهم بصديقه ابن الداية وكان قد كتب إلى ابن المقدم في دمشق وإلى الأمراء: لو أن نور الدين يعلم أن فيكم من يقوم مقامي به مثل ثقته بي لسلَّم إليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيري، وأراكم قد تفرَّدتم بمولاي وابن مولاي دوني وسوف أصل إلى خدمته وأُجازي إنعام والده بخدمة يظهر أثرها، وأجازي كلاً منكم على سوء صنيعه في ترك الذب عن بلاده [3]. وهكذا اعتبر نفسه مسؤولاً عن دولة الملك الصالح وحسن حمايته وحمايتها [4]، وكتب إلى الأمراء بحلب ينذرهم بقدومه إلى الشام، فكتبوا إليه يسيئون الأدب [5]، ويبدو أنهم ظنُّوا أنه يغادر مصر، وكتبوا إلى صاحب الموصل يطلبون إليه الحضور إلى دمشق ليملكها قبل صلاح الدين، فظَّن ذلك مكيدة منهم ولم يلبِّ طلبهم وألحَّ أهل دمشق على ابن المقدم - الذي عاد إليهم - بدعوة صلاح الدين لئلا يستولي كـ (مشتكين) الذي استأثر بحلب على دمشق أيضاً، وكثرت المكاتبات التي وصلته للحضور إلى الشام، فقرر صلاح الدين ذلك [6].

أولاً: ضم دمشق:

بعد أن استتَّب الوضع الداخلي في مصر، تجهز صلاح الدين للزحف نحو بلاد الشام بعد خمسة أشهر من وفاة نور الدين محمود وقد خرج من القاهرة في " شهر صفر عام 570هـ" شهر أيلول عام 1174م على رأس سبعمائة جندي، ورافقه سيف الدين طغتكين وتقي الدين عمر، وعز الدين فروخشاه، وعهد إلى أخيه العادل بإدارة شؤون مصر أثناء غيابه، كما احتاط للمحافظة عليها، فوزَّع بعض عساكره على ثغورها ومداخلها [7] وقطع الطريق متمهلاً جداً في ثلاثة أشهر بين أول صفر ونهاية ربيع الثاني

(1) كتاب الروضتين (589/2)، صلاح الدين ص 151.
(2) صلاح الدين الفارس المجاهد ص 151.
(3) الكامل في التاريخ نقلاً عن صلاح الدين الفارس المجاهد ص 152.
(4) صلاح الدين الفارس المجاهد ص 152.
(5) صلاح الدين الفارس المجاهد ص 152.
(6) صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد ص 152.
(7) تاريخ الأيوبيين في مصر ص 56.

سنة 571هـ وتوقف على الطريق في بلبيس وتفقد حصن أيلة ربيع الثاني سنة 571هـ وتوقف على الطريق في بلبيس وتفقَّد حصن أيلة - العقبة -، هل كان يفكر في ما سوف يشيعه الأمراء والزنكيون في اتهامه بالعقوق وبالطمع الشخصي؟ أم كان يتأنى وهو يرسم الخطة لكسب أمراء نور الدين دون حرب أو نزاع؟ أم كان يقيس مدى شعبيته لدى الناس بهذا الجيش القليل، فيأتي الشام، كالأعزل وجيشه في مصر؟ أم كان يتحَّدى الذين يريدون عزله في مصر والانفراد بإرث نور الدين وولده؟ أم كان يمهِّد بهدوء لدخول البلاد سلماً بالاستناد إلى محبته الشعبية [1] أفكار كثيرة يمكن أن ترد إلى خاطره، ولعلَّ أشدَّها أن أعداءه سيظنون به الظنون ويركبونها، ويشنعون عليه، بالمطامع الشخصية، فقد كتب كتاباً بالإنشاء الفاضلي قال فيه: إن الوفاء إنما يكون بعد الوفاة والمحبة تظهر آثارها عند تكاثر العداة.

وبالجملة فأنا في واد والظانون بي ظن السوء في واد ولنا من الصلاح مراد لن يبعدنا عنه مراد، ولا يقال لمن طلب الصلاح إنك قادح، ولا لمن ألقى السلاح إنك جارح وما مرادنا إلا مصلحة تؤثر لافتنة تثار، فلو زدنا على غير هذا السبيل لما سلكنا مراجعة الخطاب ومطالعة الكتاب، فلا يحمل أمرنا إلا على أحسنه ولا يظن بنا إلا الخير الذي طبْعنا أخص بوجوده من معدنه [2] وقد أرسل صلاح الدين رسالة إلى الخليفة المستضيء يوضح فيها سبب زحفه على بلاد الشام وكان الهدف من الرسالة إضفاء الصفة الشرعية للعمل الذي يقوم به وكذلك لإشعار الخلافة العباسية بولائه لها [3] فذكر:

1 - خطاب صلاح الدين الموجه للخليفة العباسي:

أرسل السلطان صلاح الدين الخطيب شمس الدين ابن الوزير أبي المضاء إلى الديوان العزيز برسالة ضمنها القاضي الفاضل كتاباً طويلاً رائقاً فائقاً، يشتمل على تعداد ما للسُّلطان من الأيادي من جهاد الإفرنج في حياة نور الدين، ثم فتح مصر واليمن، وبلاد جمَّة من أطراف المغرب، وإقامة الخُطبة العباسية بها يقول في أوله للرسول: فإذا قضي التسليم حقَّ اللقاء، واستدعى الإخلاص جهد الدُّعاء، فليعُد حوادث ما كانت حديثاً يفترى وجواري أمور إن قال فيها كثيراً فأكثر منه ما قد جرى، وليشرح صدراً منها لعَّله يشرح منا صدراً وليوضح الأحوال المستسَّرة فإن الله لا يُعبد سِراً.

ومن الغرائب أن تسير غرائبٌ ::: في الأرض لم يعلم بها المأمول

---

(1) صلاح الدين الفارس المجاهد ص 153.
(2) سنا البرق الشامي نقلاً عن صلاح الدين الملك المجاهد ص 156.
(3) دور المدن الفلسطينية في مقاومة الغزو الصليبي ص 53.

كالعيسِ أقتل ما يكــون لهــا الصَّــدى ::: والمــاء فــوق ظهورهــا محمــول

فإنا كنا نقتبس النار بأكفنا وغيرنا يستنير، ونستنبط الماء بأيدينا وسوانا يستمير، ونَلْقى السِّهام بنحورنا وغيرنا يعتمد التصوير، ونصافح الصِّفاح بصدورنا وغيرنا يَّدعى التصَّدير. ولابد أن نستردَّ بضاعتنا بموقف العدل الذي تُرد به العُصوب، وتظهر طاعتنا فنأخذ بحظ القلوب. وما كان العائق إلا كُنَّا ننتظر ابتداءً من الجانب الشريف بالنعمة يضاهي ابتداءنا بالخدمة، وإيجاباً للحق يشاكل إيجابنا للسَّبْق وكان أول أمرنا أنا كنا في الشام نفتتح الفتوح مباشرين بأنفسنا ونجاهد الكُفّار... متقدمين لعساكرنا، نحن ووالدنا وعمنا، فأي مدينة فُتحت أو مَعْقِل مُلك أو عسكر للعدوّ كَسَر أو مصاف للإسلام معه طُرب لم نكن فيه. فما يجهُلَ أحدٌ صنُعا ولا يجحد عدونا أنَّا نعطي الجمرة، ونملك الكَرَّة ونتقدم الجماعة ونُرتَّب المقاتلة، وندبر التَّعبئة، إلى أن ظهرت في الشام الآثار التي لنا أجرها، ولا يضرنا أن يكون لغيرنا ذكرُها وكانت أخبار مصر تتصل بنا بما الأحوال عليه فيها من سوء تدبير وبما دَوْلتها عليه من غلبة صغير على كبير، وأن النظام بها قد فَسَد والإسلام بها قد ضَعُفَ عن إقامته كلُّ من قام وقَعَد والفرنج قد احتاج من يدبرها إلى أن يقاطعهم بأموال كثيرة، لها مقادير خطيرة، وأنَّ كلمة السنُّة بها وإن كانت مجموعة فإنها مقموعة، وأحكام الشريعة، وإن كان مسماة فإنها متحاماة، وتلك البدع بها على ما يُعلم، وتلك الضَّلالات فيها على ما يفتى فيه بفراق الإسلام ويحكم، وذلك المذهب قد خالط من أهله اللّحم والدم، وتلك الأنصاب قد نصبت آلهة تُعْبَدُ من دون الله وتعظمّ وتضخم، فتعالى عن شبه العباد، وويلٌ غَرَّة تقلُّبُ الذين كفروا في البلاد.

فسمت همَّتُنا دون همم أهل الأرض إلى أن نستفتح مُقَفلها، ونسترجع للإسلام شاردها، ونعيد على الدين ضالته منها، فسرنا إليها في عساكر ضخمة وجموع جمة وبأموال انتهكت الموجود، وبلغت منا المجهود، أنفقناها من حاصل ذممنا وكسب أيدينا وثمن أسارى الفرنج الواقعين في قبضتنا فعرضت عوارض منعت، وتوجَّهت للمصريين رُسُل باستنجاد الفرنج قطعت**{لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ}** ولكلّ أمل باب. وكان في تقدير الله أنّا نملكها على الوجه الأحسن، ونأخذها بالحكم الأقوى الأمكن، فَغَدرَ الفرنج بالمصريين غدرة في هدنة عَظُمَ خَطْبُها وخبطها، وعُلم أن استئصال كلمة الإسلام محطُّها فكاتبنا المسلمون من مصر في ذلك الزمان، كما كاتبنا المسلمون من الشَّام في هذا الأوان بأنا إن لم ندرك الأمر وإلا خرج عن اليد، وإن لم ندفع غريم اليوم لم نمهل إلى الغد، فيسرنا بالعساكر المجموعة وأمراء الأهل المعروفة، إلى بلاد قد تمهَّد لنا بها أمران وتقَّرر لنا في القلوب وُدَّان: الأول ما علموه من إيثارنا للمذهب الأقوم وإحياء الحق الأقدم، والآخر ما يرجونه من فكَ إسارهم، وإقالة

عِثارهم [1].

ففعل الله ما هو أهله وجاء الخبر إلى العدو فانقطع جَبْلهُ وضاقت به سُبله وأفرج عن الديار بعد أن كانت ضياعها ورساتيقها وبلادها وأقاليمها، قد نفذت فيها أوامره، وخفقت عليها صُلْبانه، ونصبت بها أوثانه، وأيس من أن يسُترجع ما كان بأيديهم حاصلاً، وأن يسُنقد ما صار في ملكهم داخلاً ووصلنا البلاد وبها أجناد عددهم كثير، وسوادهم كبير، وأموالهم واسعة، وكلماتهم جامعة، وهم على حرب الإسلام أقدر منهم على حرب الكفر، والحيلة في السّرّ فيهم من العزيمة في الجهر وبها راجل من السُّودان يزيد على مئة ألف، كلهم أغتام [2] أعجام{إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ} لا يعرفون ربًّا إلا ساكن قصره، ولا قبلة إلاّ ما يتوجهون إليه من ركنه، وامتثال أمره، وبها عسكر من الأرمن باقون على النصَّرانية موضوعة عنهم الجزية، كانت لهم شوكة وشِكَّة، وحُمة وحَمِيَّة ولهم حواش لقصورهم من بين داع تلطَّف في الضَلال مداخلُه، وتصيب القلوبَ مخاتله، ومن بين كُتَّاب تفعل أقلامهم أفعال الأشل وخُدَّام يجمعون إلى سواد الوجوه سواد النَّحل، ودوله قد كبر نملها الصَّغير، ولم يعرف غيرها الكبير، ومهابة تمنع من خَطرَات الضَّمير، فكيف بخطوات التدبير، هذا إلى استباحة للمحارم ظاهرة، وتعطيل الفرائض على عادة جائرة، وتحريف للشريعة بالتأويل، وعدول إلى غير مراد الله بالتنزيل، وكُفْر سُمي بغير اسمه وشرع يُتستَّر به ويُحكم بغير حكمه، فما زلنا نسحتهم سحت المبادر للسّفار، ونتحيَّفهم تحيُّف الليل والنهار للأعمار، بعجائب تدبير لا تحتملها المساطير، وغرائب تقدير لا تحملها الأساطير، ولطيف توصُّلٍ ما كان من حيلة البشر ولا قدُرتهم لولا إعانة المقادير.

وفي أثناء ذلك استنجدوا علينا الفرنج، دفعة إلى بلبْيس ودفعة إلى دمياط، وفي كل دفعة منهما وصلوا بالعدو المجهر [3] والحشد الأوفر، وخصوصاً في نوبة دمياط، فإنهم نازلوها بحراً في ألف مركب، مقاتل وحامل، برّاً في مئتي ألف فارس وراجل، وحصروها شهرين يباكرونها ويراوحونها، ويماسونها ويصابحونها القتال الذي يصلْبه الصليب، والقراع الذي ينادي به الموت من كل مكان قريب، ونحن نقاتل العدوَّين الباطن والظاَّهر، ونصابر الضدَّين المنافق والكافر، حتى أتى الله بأمره وأيدنا بنصره وخابت المطامع من المصريين والفرنج، وشرعنا في تلك الطوائف من الأرمن

(1) أي عشارهم.
(2) اغتنام، مفردها اغتم وغتمى العتمة: عجمة في المنطق.
(3) كتاب الروضتين (361/2).

والسُّودان والأجناد، فأخرجناهم من القاهرة، بالأوامر المرهقة لهم، وبالأمور الفاضحة منهم، وبالسيوف المجرَّدة وبالنار المحرقة، حتى بقي القصُر ومن به من خدم ومن ذرِّية قد تفرقت شِيُعه وتمزقت بدعه وخفتت دعوته، وخفيت ضلالته، فهناك تمّ لنا إقامة الكلمة، والجهر بالخطبة والرفع للواء الأسود المعظم، وعاجل الله الطاغية الأكبر لهلاكه وفنائه، وبرأنا من عُهدة يمين ثم يمين كان إثم حِنثها أيسر من إثم إبقائه لأنه عوجل لفرط روعته، ووافق هلاك شخصه هلاك دولته.

ولما خلا ذرعنا، ورَحُب وسعنا نظرنا في الغزوات إلى بلاد الكُفَّار فلم تخرج سَنَة إلا عن سُنَّة أقيمت فيها براً وبحراً، مركبا وظهراً، إلى أن أو سعناهم قتلاً وأسراً وملكنا رقابهم قهراً وقسراً [1]، وفتحنا لهم معاقل ما خطر أهل الإسلام فيها مُذ أُخذت من أيديهم ولا أُوجفت عليها خيلهم ولا ركابهم مُذ ملكها أعاد بهم فمنها ما حُكّمت فيه يَدُ الخراب، ومنها ما استولت عليه يد الاكتساب، ومنها قلعة بثغر أيلة كان العدوُّ قد بناها في بحر الهند، وهو المسلوك منه إلى الحرمين واليمن، وغزا ساحل الحَرَم فسبى منه خَلْقاً، وخرق الكفر في هذا الجانب خرقاً، فكادت القبلة أن يستولى على أصلها ومشاعر الله أن يسكنها غيُر أهلها، ومقام الخليل عليه السَّلام، أن يقوم به من نَارُه غيرُ برد وسلام، ومضجع الرسول ﷺ أن يتطرَّقه من لا يدين بما جاء به من الإسلام، ففتح الله هذه القَلعة وصارت مَعْقلاً للجهاد، وموئلاً لسُقَّار البلاد وغيرهم من عُبَّاد العباد. ثم قال: وكان باليمن ما عُلِم من ابن مهدي الضَّال الملحد المبدع المتمرِّد، وله آثار في الإسلام، وثأر طالبُهُ النبي عليه الصلاة والسلام لأنه سبى الشرائف الصالحات وباعهن بالثمن البَخْس، واستباح منهن كل مالا يقر المسلم عليه نفس، ودان ببدعة، ودعا إلى قبر أبيه وسمَّاه كعبة وأخذ أموال الرَّعايا المعصومة وأجاحها [2]، وأحلَّ الفروج المحَّرمة وأباحها فأنهضنا إليه أخانا بعسكرنا بعد أن تكلفنا له نفقات واسعة وأسلحة رائعة، وسار فأخذناه ولله الحمد، وأنجح الله فيه القصد، والكلمة هنالك بمشيئة الله إلى الهند سامية وإلى ما يقتضيُّ الإسلام عُذرته متمادية.

ولنا في الغرب أثرٌ أغرب، وفي أعماله أعمال دون مطلبها مهالك كما يكون المهلك دون المطلب؛ وذلك أن بني عبدالمؤمن قد اشتهر أن أمَرْهَم قد أمر [3] وملكهم قد عُمر، وجيوشهم لا تطاق وأمرهم لا يشاق، ونحن بحمد الله قد تملكنا مما يجاورنا منه بلاداً

(1) المصدر نفسه (361/2).
(2) أي أهلكها.
(3) أي قد تمَّ.

تزيد مسافتها على شهر، وسَيَّرنا إليها عسكراً بعد عَسكر، فرجع بنصر بعد نصر، ومن البلاد المشاهير والأقاليم الجماهير: برقة، قَفصة، قسطيلية، تَوْزَر، كلُّ هذه تقام فيها الخطبة لمولانا المستضيء بأمر الله - أمير المؤمنين سلام الله عليه - ولا عهد للإسلام بإقامتها وينفَّذ فيها الأحكام بعلمها المنصور وعلامتها.

وفي هذه السنة كان عندنا وَفدٌ قد شاهده وفود الأمصار ورموه بأسماع وأبصار، مقداره سبعون راكبا كلهم يطلب لسلطان بلده تقليداً، ويرجو منا وعداً ويخاف وعيداً وقد صدرت عنا بحمد الله تقاليدها، وألقيت إلينا مقاليدها، وسَيَّرنا الخِلَعَ والمناشير والألوية، بما فيها من الأوامر والأقضية، فأمّا الأعداء المحدقون بهذه البلاد والكُفّار الذين يقاتلوننا بالممالك العظام والعزائم الشّداد، فمنهم صاحب قسطنطينية وهو الطّاغية الأكبر، والجالوت الأكفر، وصاحب المملكة التي أكلت على الدّهر وشربت، وقائم النصرانية التي حكمت دولته على ممالكها وغَلَبتَ، جرت لنا معه غزوات بحرية، ومناقلات [1] ظاهرة وسِرِّية ولم نخرج من مصر إلى وصلتنا رُسله في جمعة واحدة نوبتين، بكتابين، كل واحد منهما يظهر فيه خفض الجناح وإلقاء السّلاح والانتقال من معاداة إلى مُهاداة، ومن مفاضحة إلى مناصحة، حتى إنه أنذر بصاحب صقلية وأساطيله التي تردَّد ذكرها وعساكره التي لم يخف أمرها. ومن هؤلاء الكُفّار هذا صاحب صقلّية، كان حين علم بأن صاحب الشَّام وصاحب قسطنطينية قد اجتمعا في نوبة دمياط فغُلبا وقسراً وهُزما وكُسرا، أراد أن يظُهر قُوَّته المستقلّة فعمَّر أسطولا استوعب فيه ماله وزمانه، فله الآن خمس سنين يكثُر عِدَّته، وينتخب عُدَّته، إلى أن وصل منها في السنة الخالية إلى الإسكندرية أمر رائع وخَطْبٌ هائل، ما أثقل ظهر الحبر مِثلُ حمله، ولإملاء مدره مثل خيله ورَجْله، وما هو إلا أقليم بل أقاليم نَقلَه، وجيش ما احتفل ملك قط بنظيره لولا أن الله خذله.

ومن هؤلاء الجيوش البنادقة، والبياشنة والجنوبية كلّ هؤلاء تارة يكونون غزاة لا تُطاق ضراوة ضَرّهم، ولا تطفأ شرارة شَرّهم، وتارة يكونون سُفّاراً يحتكمون على الإسلام في الأموال المجلوبة، وتقصُر عنهم، ويُد الأحكام المرهوبة، وما منهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده، ويتقرَّب إلينا بإهداء طرائف أعماله وتلاده وكلهم قد قُرِّرت معهم المواصلة، وانتظمت معهم المسُالمة، على ما نريد ويكرهون وعلى ما نؤثرُ وَهُم لا يؤثرون ولما قضى الله سبحانه بالوفاة النورية وكنا في تلك السنة على نِيَّة الغزاة والعساكر قد تجهَّزت والمضارب قد برّزت ونزل الفرنج بانياس

(1) كتاب الروضتين (365/2).

وأشرفوا على اجتيازها ورأوها فُرصة مدُّوا يَدَ انتهازها، استصرخ بنا صاحبها، فسرنا مراحل اتصل بالعدوّ أمرها، وعوجل بالهُدْنة الدمشقية التي لولا مسيرنا ما انتظم حكمها ثم عدنا إلى البلاد وتوافق إلينا الأخبار بما المملكة النورية عليه من تشعُّب الآراء وتوزُّعها، وتشتُّت الأمور وتقطعها، وأن كل قلعة قد حصل فيها صاحب وكل جانب قد طمع إليه طالب، والفرنج قد بنوا قلاعاً يتحيّفون بها الأطراف الإسلامية، ويضايقون بها البلاد الشامية وأمراء الدولة النُّورية قد سجن كبارُهم، وعوقبوا وصودروا، والمماليك الأغمار الذين خُلقوا للأطراف لا للصُّدور، وجعلوا للقيام لا للقعود في المجلس المحضور، قد مدُّوا الأيدي والأعين والسيوف، وساءت سيرتهم في الأمر بالمنكر والنَّهي عن المعروف [1].

وكل واحد يتخذ عند الفرنج يداً، ويجعلهم لظهره سنداً، وعلمنا أن البيت المقَّدس إن لم تتيسَّر الأسباب لفتحه، وأمر الكفُر إن لم يجرد العزم في قَلْعه وإلا نبتت عروقه واتسعت على أهل الدين خُروقه، وكانت الحجة لله قائمة، وهمم القادرين بالقعود آثمة. وإنَّا لا نتمكن بمصر منه مع بُعد المسافة، وانقطاع العمارة، وكلال الدَّواب التي بها على الجهاد القوة وإذا جاورناه كانت المصلحة بادية، والمنفعة جامعة واليد قادرة، والبلاد قريبة والغزوة ممكنة والميرة متسعة، والخيل مستريحة، والعساكر كثيرة الجموع، والأوقات مساعدة. وأطحنا ما في الشام من عقائد مَعتَّلة، وأمور مختَّلة وآراء فاسدة، وأمراء متحاسدة وأطماع غالبة، وعقول غائبة، وحفظنا الولد القائم بعد أبيه فإنّا به أولى من قوم يأكلون الدّنيا باسمه ويُظهرون الوفاء في خدمته وهم عاملون بظلمه. والمراد الآن هو كل ما يقوي الدولة، ويؤكد الدعوة ويجمع الأمة ويحفظ الألفة ويضمن الرأفة ويفتح بقية البلاد وأن يطبَّق بالاسم العباسي كل ما تطبقه المهاد، وهو تقليد جامع بمصر، واليمن والمغرب والشام، وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية، وكل ما يفتحه الله تعالى للدولة العباسية بسيوفنا وسيوف عساكرنا، ولمن نقيمه من أخ أو ولدٍ من بعدنا تقليداً يضمن للنعمة تخليداً، وللدعوة تجديداً، مع ما ينعم من السمات التي فيها الملك.

وبالجملة فالشام لا تنتظم أموره بمن فيه والبيت المقَّدس ليس له قرْن يقوم به ويكفيه، والفرنج فهم يعرفون منا خَصماً لا يَمَلُّ الشر حتى يملوا، وقرْنا لا يزال محرم السيف حتى يجلوا، وإذا شَدَّ رأينا حُسْن الرأي ضربنا بسيف يقطع في غمده، وبلغنا المنى بمشيئة الله تعالى ويَدُ كل مؤمن تحت بُرْده واستنقذنا أسيراً من المسجد الذي

(1) كتاب الروضتين (365/2).

أسرى الله إليه بعبده [1].

ومن كتاب آخر فاضلي جاء فيه: لم يكن سببُ خروج المملوك من بيته إلا وعدٌ كان انعقد بينه وبين نور الدين رحمه الله تعالى في أن يتجاذبا طرفي الغزاة من مصر والشام؛ المملوك بعسكري بَرّه وبحره، ونور الدين من جانب سهل الشَّام وَوَعْره، فلما قضى الله بالمحتوم على أحدهما وحدثت بعد الأمور أمور، واشتهرت للمسلمين عورات وضاعت ثغور، وتحكمّت الآراء الفاسدة وفُورقت المحاجُّ القاصدة، وصارت الباطنية بطانة من دون المؤمنين والكُفَّار محمولة إليها جِزَى المسلمين والأمراء الذين كانوا للإسلام قواعد، وكانت سيوفهم للنّصر موارد، يشكون ضيق حلقات الإسار، وتطرُّق الكفار بالبناء في الحدود الإسلامية، ولا خفاء أنَّ الفرنج بعد حلولنا بهذه الخطة قاموا وقعدوا، واستنجدوا علينا أنصار النصرانية في الأقطار، وسيرَّوا الصَّليب ومن كُسى مذابحهم بقمامة وهدَّدوا طاغية كفرهم بأشراط القيامة ونفدّوا البطارقة، والقسّيسين، برسائل صُوَرِ من يصورونه ممن يسمُّونهم القِدّسين، وقالوا: إن الغفلة إن وقعت أوقعت فيما لا يُستدرك فارطه وإن كلاً من صاحب قُسطنطينية، وصاحب صِقِلِيّة، وملك الألمان وملوك ما وراء البحر، وأصحاب الجزائر، كالبندقية والبيشانية والجَنوية، وغيرهم، قد تأهبوا بالعمائر البحرية والأساطيل القوية، والإسلام يا أمير المؤمنين أعزُّ ناصراً، لاسيما وهم ينصرون باطلاً وهو ينصر حقاً وهو يعبد خالقاً وهم يعبدون خلْقا [2] وقد استجاب الخليفة لمطالب صلاح الدين وأنعم عليه بحكم مصر والشام وأرسل إليه رسل دار الخلافة عندما كان يحاصر حماة في عام (570هـ/1174م) تحمل التشريفات والتقليد والتمليك، والتفويض [3] وهذا دليل على رغبة الخلافة العباسية في التعامل الصادق مع صلاح الدين الذي رأت فيه الشخصية التي سوف تملأ الفراغ الذي تركه نور الدين محمود، واعتراف له بالسلطنة، وأنه أصبح الشخصية المؤهلة للدفاع عن المسلمين، وقد أضفى هذا التقليد عليه، المهابة أمام الأمراء المسلمين بعامة، والصليبيين بخاصة والواقع أن صلاح الدين، على الرغم مما توافر له من القوة، كان بحاجة إلى مساندة الخلافة في صراعه مع الأمراء المسلمين المناوئين وبخاصة الزنكيين، لذلك كان يُطلعُ هذه الخلافة على تحركاته، ومنجزاته ليكسب تأييدها [4].

---

(1) كتاب الدولتين (367/2).
(2) كتاب الروضتين (368/2).
(3) تاريخ الأيوبيين في مصر والشام ص 84.
(4) المصدر نفسه ص 84.

2 - دخوله دمشق:

وصل صلاح الدين بجيشه إلى دمشق واستقبل استقبالاً طيباً وفتح لـه ابن المقدم في اليوم التالي، أبواب المدينة وسلّمها لـه، وامتنعت عليه القلعة وكانت بيد خادم اسمه جمال الدين ريحان، فاستماله صلاح الدين وأقنعه بتسليمها لـه، وهكذا ضمّ صلاح الدين دمشق وقلعتها بحجة حماية الصالح إسماعيل من خطر الصليبيين، والأمراء الطامعين واسترَّد الأملاك التي استولى عليها سيف الدين غازي أمير الموصل والجزيرة [1].

واعتمد صلاح الدين في دمشق سياسة تأييد الناس لـه فأمر بإنفاق الأموال على الناس وإبطال الضرائب وإزالة المكوس وإطابة النفوس وأكرم العلماء لما كان لهم من تأثير كبير على العامة حيث زار دار القاضي كمال الدين الشهرزوري وأزال سوء التفاهم بينهم [2]، وأجابه القاضي الشهرزوري بقولـه: طب نفساً فالأمر أمرك والبلد بلدك [3]، فكانت كلمات القاضي إعلاناً للدمشقيين بالتسليم المطلق لصلاح الدين والانقياد لـه، فأعلنوا فرحتهم وسرورهم [4]، وسلموا مقاليدهم إلى صلاح الدين، وقابلهم بالإكرام والترحيب وإظهر السرور بهم [5] وألقى صلاح الدين كلمة في أهل دمشق قال فيها: إن الله ملكنا دمشق عناية لاعنوة، ولم يكتب فيها بحمد الله إلى خطيئة خطوة ولا حدثت عثرة فيقال في أمرها لعله يقال، ولا استعبدت حقه في ذكرها لعله يقال:.. فعلموا أن الهيثم تذره الرياح والصريم يمحوه الصباح والسيف أصدق أنباء والحق أعز بناء والباطل يضمحل عناء، والزبد يذهب جفاء، إلا وأنا رأينا العفو أقرب للتقوى وأمثل في سلوك الطريقة المثلى فحفظنا الدماء في أهبتها وأرحنا القلوب من نصبها وأبقينا السلطنة في منصبها، ورددنا السيف عن قرب نقيضها في قربها وتركنا الرياح وأطرافها تضطرم وستضطرب وقدا، وقلنا لنار الغيظ يا نار كوني برداً، ونظرنا في أحوال البيت النوري أعلاه الله فإذا قد أطفأت مصابيح نوره، وكاد ذكره في الذهاب يلحق بمذكوره [6].

وبعد ضم دمشق أخذ صلاح الدين ينفّذ سياسته في إعادة بناء الجبهة الإسلامية

---

(1) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص 56.
(2) دور المدن الفلسطينية في مقاومة الغزو الصليبي ص 53.
(3) ذرات الذهب في أخبار من ذهب (243/4).
(4) المصدر نفسه (243/4).
(5) النجوم الزاهرة (25/1).
(6) سنا البرق الشامي ص 77 الفكر السوقي الأيوبي ص 77.

المتحدة، بحيث تمتد من شمالي العراق إلى بلاد الشام، فمصر، ليتمكن، بعد ذلك، من البدء في حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، والمسلمون أشد ما يكونون قوة وتماسكاً[1]. ولما حصل على دمشق وقلعتها واستوطن بُقعتها، نشر عَلَم العدل والإحسان وعفَّى آثار الظلم والعدوان وأبطل ما كان الولاة استجدوه بعد موت نور الدين من القبائح والمنكرات والمؤن والضرائب والمحرمات [2]. ثم تابع تقدمه باتجاه الشمال لمناوأة كمشتكين في حلب، بعد أن عيَّن أخاه طغتكين والياً على دمشق، فضَّم حمص وتقدم باتجاه حلب، بعد أن استعصت عليه [3] القلعة.

3 - مهاجمة حلب:

تولى الملك الصالح إسماعيل الحكم بعد وفاة والده، ولما كان صغيراً لا يفقه تدبير شؤون الحكم، لذلك كان وجوده على رأس السلطة اسمياً فقط، بينما تمكن أعوانه من التلاعب بمقدرات الدولة ونقلوا مركز الحكم من دمشق إلى حلب [4] ومن حلب، بدأ كمشتكين، الوصي على الملك الصالح والمتفرد بحكم المدينة تنفيذ سياسية خاصة تقضي بتثبيت نفوذه، فاعتقل ابن الدايه وراح يخطط لإبعاد صلاح الدين عن حلب بكل الوسائل فعندما تقدم صلاح الدين إلى حلب، بعث إليه كمشتكين كتاباً، اتهمه فيه بحبه للغزو والسيطرة على أملاك سيده نور الدين محمود وابنه الملك الصالح [5].

والواقع أن صلاح الدين وقف على نوايا كمشتكين وغاياته، فكان يراسل الملك الصالح لتوضيح الأمر له وإبداء النصح منعاً لتردي العلاقات بينهما [6]، ويبدو أن الملك الصالح لم يكن راضياً عن تصرفات أمرائه إلا أنه كان ضعيفاً لا يستطيع إبعادهم من حوله، كما كان سريع التأثر بهم نظراً لصغر سنه، وليس أدل على ضعف الملك الصالح وتلاعب كمشتكين بمقدراته أنه على الرغم من معارضته لاعتقال عز الدين جورديك، أمير حماة ورسول صلاح الدين إليه لعقد صلح بين الطرفين، إلا أن كمشتكين لم يأبه لهذه المعارضة، فقبض على جورديك وأثقله بالحديد وعذّبه ووضعه في الجب الذي وضع فيه أولاد ابن الداية [7]، ولذلك كان من الطبيعي أن يتوجه صلاح الدين إلى

(1) تاريخ الأيوبيين في مصر والشام ص 56.
(2) كتاب الروضتين (344/2).
(3) الكامل لابن الأثير نقلاً عن تاريخ الأيوبيين ص 56.
(4) كنز الدرر (58/7 - 59).
(5) مرآة الزمان (327/8) تاريخ الأيوبيين ص 57.
(6) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص 57.
(7) زبدة حلب في تاريخ حلب (520/2).

حلب لإنقاذ رسوله والملك الصالح من قبضة كمشتكين وضمّ حلب إلى أملاكه، ونظراً لأهميتها في مخططه القاضي بتوحيد القوى الإسلامية أغلق كمشتكين أبواب حلب في وجه صلاح الدين الذي شرع في 3 جمادي الآخرة عام 570هـ/30كانون الأول عام 1174م في حصارها [1]. وكان أهلها يميلون إلى الإذعان له باستثناء الشيعة فيها. وناشدهم الملك الصالح أن يحافظوا عليه من رجل يريد أن يسلبه إرثه، فاشترطوا لمؤازرته أن:

- يخّصص الجانب الشرقي من الجامع لهم.
- يُعاد الأذان بـ "حي على خير العمل" وأن يُذكر ذلك في الأسواق.
- يُذكر أسماء الأئمة الاثني عشر بين يدي الجنائز.
- يكبّر على الجنازة خمساً.
- تكون عقود نكاحهم إلى أبي طاهر الحسيني.

وافق الصالح إسماعيل على طلبهم بتأثير من كمشتكين [2] حدث هذا في الوقت الذي لجأ فيه كمشتكين إلى الاستعانة بالحشيشة والصليبيين، لإبعاد صلاح الدين عن أسوار حلب استجاب سنان زعيم الشيعة الباطنية الإسماعيلية وبعث بجماعة من الفدائيين في جمادي الآخرة 570هـ/كانون الثاني 1175م لقتل صلاح الدين متنكرين بزي الجند، فتمكن بعضهم من التسلل إلى خيمته وأوشكوا على تنفيذ مؤامرتهم ولكن انكشف أمرهم ونجا صلاح الدين من محاولة الاغتيال [3] وبعد أن فشل الشيعة الإسماعيلية في اغتيال صلاح الدين أرسل كمشتكين إلى ريموند الثالث أمير طرابلس، والوصي على عرش مملكة بيت المقدس، أن يحدَّ من تعاضم قوة صلاح الدين، إذ لم يكن يوسع الصليبيين أن يمنعوا وحدة دمشق والقاهرة، غير أن حلب ما زالت على الأقل خارجة عن الاتحاد وهكذا أدرك الصليبيون أن استقلال حلب وبقاءها في يد البيت الزنكي هو الضمان الوحيد لمنع قيام وحدة إسلامية تمتد من النيل إلى الفرات، وقد توافقت مصالحهم مع مصالح الزنكيين في هذا الشأن[4] وحاول ريموند الثالث الالتجاء إلى الوسائل السياسية فأرسل إلى صلاح الدين يرغبّه في الصلح ويلّوح له بأن الفرنج قد تعاضدوا وصاروا يداً واحدة. ولكن

(1) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص 57.
(2) البداية والنهاية نقلاً عن تاريخ الأيوبيين ص 58.
(3) مفرج الكروب (824/2).
(4) الحركة الصليبية (744/2) تاريخ الزنكيين ص 58.

صلاح الدين لم يخشَ التهديد، وردَّ على ريموند الثالث بالإغارة على أعمال أنطاكية [1]. عندئذ لم يجد الحاكم الصليبي وسيلة لإبعاد صلاح الدين عن حلب سوى مهاجمة حمص، فظهر أمامها وشرع يهاجم أسوارها، تسانده الحامية، المرابطة في القلعة التي ظلت على وفائها للزنكيين وفعلاً اضطر صلاح الدين إلى رفع الحصار عن حلب وارتحل عن أسوارها لإنقاذ حمص غير أن ريموند الثالث لم يمكث ليلتقي به فعاد إلى حصن الأكراد بعد أن تأكد من تحقيق غرضه [2].

ولما اطمأن صلاح الدين على سلامة حمص، غادرها متوجهاً إلى بعلبك وضمَّها إلى أملاكه في 4رمضان 570هـ/30 آذار 1175م [3]. كان أمراء حلب يعرفون أن صلاح الدين أقوى منهم مادياً ومعنوياً، فقد أخطؤوا بالتخطيط للتعامل معه، واعتمدوا على إمكان إثارة ثلاث قوى معهم ضده: الموصل، والفرنج، والإسماعيلية؛ ولذلك أرسلوا رسولاً هو قطب الدين ينال بن حسان المنجي برسالة تبرق وترعد، ومع أن صلاح الدين استقبل الرسول بنفسه بالترحاب ثلاثة أيام؛ إلا أنه أدَّى الرسالة في النهاية قائلاً: إن السيوف التي ملكَّتك مصر ما تزال في أيدينا والرماح التي حويت بها قصور الفاطميين على أكتافنا والرجال التي ردّت عنك تلك العساكر؛ هي تردُّك، وعمّا تصديت له تصدَّك فقد تعديت طورك وجاوزت حدك، وأنت أحد غلمان نور الدين، وممن يجب عليه حفظه في ولده [4] ولم يُجبْه صلاح الدين على هذا كله، بل ضرب عنه صفحاً وَتغاضياً، وخاطبه بكلام رقيق؛ وقال: يا هذا أعلم أني وصلت إلى الشام لجمع كلمة الإسلام وحياطة الجمهور، وسد الثغور، وتربية ولد نور الدين، وكف عادية المعتدين؛ فقال ابن حسان: إنك إنما وردت لأخذ الملك لنفسك، ونحن لا نطاوعك على ذلك. ودون ما ترومه خرط القتاد، وأيتام الأولاد؛ فتبسم صلاح الدين وأومأ لرجال بإقامته من بين يديه، وتماسك بعد أن كان يسطو عليه؛ وقال له: والله ما جئت إلا لأستنقذ هذا الملك الصالح من يد أمثالك، فأنتم سبب زوال دولته عليه [5].

لقد رفض كمشتكين الانقياد لصلاح الدين وبذل ما في وسعه للتصدي له ومن العمليات الذكية التي استخدمها كمشتكين ضد صلاح الدين:

---

(1) كتاب الروضتين (350/2، 351).
(2) تاريخ الزنكيين في مصر وبلاد الشام ص 59.
(3) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين ص 59.
(4) كتاب الروضتين (346/2).
(5) المصدر نفسه (346/2) صلاح الدين الملك المجاهد ص 159.

- لعب على الخلاف الطائفي وفاوض الفريق الشيعي في البلد، وتملقّهم، فانشترطوا عليه أمور تّم ذكرها مما كان نور الدين قد منعه من قبل فسمح لهم بكل ذلك ليدافعوا عنه[1].

- لعب بعواطف الجمهور، فجمع الناس وكان فيهم الشيعة بالطبع وأخرج إليهم الملك الصالح الصبي، فخطب فيهم بما وضعه كمشتكين على لسانه: يا أهل حلب أنا ربيبكم ونزيلكم واللاجئ إليكم، كبيركم عندي بمنزلة الأب وشابُّكم عندي بمنزلة الأخ، وصغيركم عندي يحل محل الولد... ثم خنقته العبرة وعلا نشيجه، فافتتن الناس وصاحوا صيحة واحدة، ورموا بعمائمهم وضجُّوا بالبكاء والعويل؛ وقالوا: نحن عبيدك وعبيد أبيك، نقاتل بين يديك ونبذل أموالنا وأنفسنا لك وأقبلوا على الدعاء له والترحم على أبيه[2]. ولم يستطع الحلف الحلبي، والموصلي والإسماعيلي والفرنجي التصدي لمشروع صلاح الدين التوحيدي ولم يحل شهر نيسان حتى أضحى صلاح الدين يبسط سلطانه على كامل بلاد الشام حتى حماة شمالاً، فانصرف بعد ذلك على العمل على إضفاء الشرعية على وضعه أمام المسلمين وقد بيّنا خطابه إلى الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله ورسالته الطويلة بقلم القاضي الفاضل والتي عدد فيها فتوحاته وجهاده ضد الصليبيين لخدمة الخلافة العباسية وبخاصة إعادته الخطبة إلى العباسيين في مصر، وتأمين الطريق إلى الحجاز واليمن، ثم أشار في رسالته، بأنه قدم إلى بلاد الشام لإصلاح الأمور، وحفظ الثغور وخدمة ابن نور الدين محمود، وطلب في ختامها تقليداً بمصر واليمن والمغرب وبلاد الشام، وجميع ما اشتملت عليه دولة نور الدين محمود، وكل ما يفتحه بسيفه [3].

4 - معركة قرون حماة:

كان سيف الدين غازي الثاني، صاحب الموصل، يراقب توسعات صلاح الدين في بلاد الشام، وضايقه انتزاعه دمشق وحمص وحماة وبعلبك وأثار غضبه حصاره لحلب في محاولة لضمّها إلى أملاكه، ثم بدت له الصورة واضحة، فيما إذا استمر صلاح الدين في تقدمه ونجح في ضمَّ حلب، فإن ذلك يشكل تهديداً خطيراً للموصل التي تصبح، بعد ذلك، هدفاً سهلاً له. من هنا أدرك سيف الدين غازي الثاني ضرورة الارتباط مع حلب في حلف دفاعي ضده [4]، وحدث آنذاكْ أن تعرَّض الصالح إسماعيل لضغط

(1) صلاح الدين الملك المجاهد ص 161.
(2) كتاب الروضتين (348/2، 349).
(3) كتاب الروضتين (357/2 - 366).
(4) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص 60.

صلاح الدين، فاستنجد بابن عمه صاحب الموصل وطلب منه إمداده بالجند، وتمكَّن وفده من إقناعه بضرورة تقديم المساعدة للوقوف في وجه صلاح الدين لأنه متى ملك حلب لم يكن لـه قصد إلا الموصل [1].

ولم يكن سيف الدين غازي الثاني بحاجة إلى من يستحثه لمواجهة صلاح الدين فقد أدرك أنه متى غفل عنه استملك البلاد، واستقر قدمه في الملك، وتعَّدى الأمر إليه، فبادر إلى جمع العساكر من الموصل والجزيرة وأعدَّ العدة لعبور الفرات إلى حلب، وأرسل إلى أخيه عماد الدين زنكي الثاني، صاحب سنجار، يطلب منه موافاته بعساكره، لكن هذا الأخير امتنع عن تلبية طلبه بعد أن استقطبه صلاح الدين، ونفخ في روعه أنه أحق من أخيه بالملك لأنه كبير البيت الزنكي، فاضطر صاحب الموصل أن يُخضع أخاه ويوجِّه، في الوقت نفسه قوة عسكرية إلى حلب عهد بقيادتها إلى أخيه عز الدين مسعود [2] عبر عز الدين مسعود الفرات متوجهاً إلى حلب، ولما وصل إليها انضم إليه من كان بها من العسكر، وسار إلى حماة وحاصرها وبعد تداول الأمور رأى الجانبان الأيوبي والزنكي أن المصلحة العامة تقتضي بضرورة التفاهم وحقن دماء المسلمين، فجرت مفاوضات بينهما تقرر بنهايتها:

- الإغضاء عن حركة الموصل المعادية لصلاح الدين.
- يتنازل صلاح الدين للصالح إسماعيل عن المدن والقلاع التي انتزعها في بلاد الشام لاسيما حمص وحماة مكتفياً بدمشق، على أن يكون فيها نائباً عنه، منتمياً إليه، والخطبة والسكة لـه.
- يعيد صلاح الدين كل ما أخذه من الخزانة [3].

أتاح هذه الاتفاق فرصة طيبة للزنكيين لاستعادة نفوذهم في بلاد الشام، وحِفظ هيبة البيت الزنكي. ثم إن قبول صلاح الدين لمبدأ التفاهم كان بهدف حفظ البلاد من التفكُّك والانقسام بعيداً عن المطامع الشخصية، لكن الزنكيين الذين اعتزُّوا بقوتهم وطمعوا في الحصول على مزيد من الامتيازات بعد أن عملوا بقلَّة عدد أفراد جيشه، طالبوه بالرحبة وأعمالها، فاعتذر عن إجابتهم بحجة أنها في يد ابن عمه ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه، ولا سبيل إليها [4]، وبذلك لم يسمح صلاح الدين لأي انشقاق يحدث داخل صفوفه،

---

(1) المصدر نفسه ص 60 نقلاً كتاب الروضتين (381/2).
(2) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الأيوبيين ص 60.
(3) كتاب الروضتين (378/2).
(4) المصدر نفسه (379/2.

وربما اكتشف بأن الزنكيين أرادوا ضرب قوته من الداخل، ففضَّل الحفاظ على وحدة صفّه.

ونتيجة لهذا الرفض قرَّر الزنكيون استئناف العمليات العسكرية، على أن صلاح الدين هزم الجيش الزنكي في مكان يقع عند حدود حماة في وادي نهر العاصي يُعرف بـ (قرون حماة) إلى الشمال من المدينة وذلك في 19 رمضان عام 570هـ/23 نيسان عام 1175م، وأسر جماعة من أمرائه ثم أطلقهم، وطارد خصومه حتى أبواب حلب، وحاصر المدينة للمرة الثانية، وأمر بقطع الخطبة للملك الصالح، وأزال اسمه من السكة في المناطق الواقعة تحت حكمه [1]، ومع ذلك، لم يشعر أن لـه من القوة ما يكفي لمواصلة القتال، ومن جهتهم فإن الحلبيين مالوا إلى الصلح [2]، ونتيجة للمباحثات التي جرت بين الطرفين تقررت الهدنة التي قضت بأن يكون لصلاح الدين ما بيده من بلاد الشام وللحلفاء الزنكيين ما بأيديهم، وأن تضاف إلى أملاكه بعض الأراضي الواقعة شمال حماة مثل المعرة [3]. وكفر طاب [4]، وبعد توقيع الاتفاق رحل صلاح الدين عن حلب [5].

وقد ساعد الانتصار الذي حققَّه صلاح الدين في "قرون حماة" على تثبيت مركزه تماماً في بلاد الشام، كما أضعف مركز مناوئيه تماماً في بلاد الشام، كما أضعف مركز مناوئيه ودفعه إلى أن يتلقَّب "ملك مصر والشام" ودُعي له على منابرها، كما سكَّ نقوداً ذهبية باسمه [6].

والواقع أن صلاح الدين كان صادق النية في التعامل الإيجابي مع الملك الصالح إسماعيل، وحاول إقناعه بأنه على استعداد لخدمته بإخلاص، مع أنه كان واضحاً أنه لن يسمح لخصومه بالتقُّرب منه، وعدَّ الصالح من جهته هذه الخدمة بأنها حقيقة السيادة وهي واجبة عليه، وبهذا الرفض الإيجابي لكل محاولة للتفاهم لم يكن أمام صلاح الدين إلا أن يتحلَّل من هذا الولاء وفي هذه الظروف، لم يجد مبرراً لعدم الإقدام على أن يتلَّقب بلقب ملك [7].

---

(1) تاريخ الزنكيين في مصر وبلاد الشام ص 61.
(2) المصدر نفسه ص 61.
(3) المعرة: مدينة كبيرة بين من أعمال حمص بين حلب وحماة.
(4) كفر طاب: بلدة بين المعرة وحلب، الحموي (470/4).
(5) النوادر السلطانية ص 94.
(6) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص 61.
(7) المصدر نفسه ص 61.

كانت أصداء معركة القرون خطيرة بقدر ما كانت نتائجها خطيرة، فإن السلطان ما وصل حماة في طريق العودة حتى وصلته رسل الخليفة المستضيء، ومعهم التشريفات الجليلة والأعلام السود وتوقيع من الديوان بالسلطنة على بلاد مصر والشام عدا حلب؛ فأصبح السلطان الشرعي والأكبر والأقوى في المنطقة كلها، والوارث الحقيقي لنور الدين في مبادئه؛ وهذا ما أحفظ عليه الزنكيين المهزومين، وزاد في حقد الحلبيين والفرنج معاً ودفع ذلك كله إلى تجدد القتال وكأنَّ الصلح مع حلب والأيمان كان لغوا [1].

5 - معركة تل السلطان:

والمحاولة الأخيرة لطرد صلاح الدين والواقع أن الخلاف بين الأيوبيين والزنكيين لم ينته بانتصار صلاح الدين في "قرون حماة". ذلك أن سيف الدين غازي الثاني لم ييأس عندما تناهى إلى أسماعه أخبار الهزيمة، وأثاره حصول صلاح الدين على تقليد من الخليفة بحكم مصر وبلاد الشام بالإضافة إلى سك النقود باسمه مما دفعه إلى التفكير بالانتقام ووضع خطة عسكرية تتيح له تطويقه، وتضمن له الفوز، وتصرف على أربعة محاور:

- أرسل إلى أمراء حلب يعتب عليهم، ويلومهم على تسرعهم في إبرام الصلح ويحرِّضهم على نقضه والتعاون معه في خوض المعركة المقبلة [2].

- أرسل سفارة إلى ريموند الثالث صاحب طرابلس والوصي على عرض مملكة بيت المقدس، يطلب منه أن يتحالف معه، ويسانده ضد صلاح الدين [3].

- حاول الوقوف على نوايا صلاح الدين، فأرسل إليه رسولا بحجة طلب الموادعة وأخذ العهد له، أما المهمة الحقيقية فهي التضليل وكشف ما عنده من نوايا، لكن الرسول أخطأ حين أخرج كتاب سيف الدين غازي الثاني إلى أمراء حلب، فقرأه صلاح الدين، وعرف ما يُبيِّته آل زنكي، مدركاً، في الوقت نفسه، أن أمراء حلب قد نقضوا العهد الذي ارتبطوا به معه وأنهم يستعدون لاستئناف القتال [4].

- استقطب كل من صاحب حصن كيفا [5]، وصاحب ماردين وغيرهما من الأمراء

---

(1) صلاح الدين الفارس المجاهد ص 170.
(2) مفرج الكروب (36/2) تاريخ الأيوبيين ص 62.
(3) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص 62.
(4) المصدر نفسه ص 63.
(5) حصن كيفا: بلدة وقعة عظيمة مشرفة على دُنَيْسر ودارا.

التركمان، كما أبدى أخوه عماد الدين زنكي الثاني صاحب سنجار استعداده للتعاون معه[1].

والواضح أن صلاح الدين لم يكن بعيداً عن هذا المناخ العدائي وحتى يقطع الطريق على تعاون سيف الدين غازي الثاني، وصاحب طرابلس، عرض على هذا الأخير سلمه وصداقته، إذا وقف على الحياد، وأطلق سراح ما عنده من أسرى الصليبيين كدليل على حسن النية [2]. حشد سيف الدين غازي الثاني أعداداً كثيرة من الجند سار بهم إلى نصيبين[3] في شهر ربيع الأول عام 571هـ/شهر أيلول عام 1175م، وأقام فيها حتى نهاية فصل الشتاء ثم عبر الفرات من البيرة [4]، وكتب إلى سعد الدين كمشتكين، والملك الصالح إسماعيل لمساندته. وفعلاً تّم الاتفاق على أن يتقدم صاحب الموصل نحو حلب، ويجتمع بابن أخيه ليقررا معاً الخطوة التالية [5]، واجتمع الطرفان في مكان يعرف بـ "عين المباركة" وتقَّرر انضمام جيش حلب إلى جيش الموصل، فبلغ عدد أفراد الجيشين عشرين ألف مقاتل، تحَّرك هذا الجيش الضخم باتجاه دمشق في شهر رمضان عام 571هـ/شهر آذار عام 1176م.

وتوقف في تل السلطان على مسافة عشرين ميلاً إلى الجنوب من حلب [6] وقرَّر كمشتكين، في هذا الوقت، التعاون مع الصليبيين لإجبار صلاح الدين على القتال على جبهتين حتى يُضعف قوته لذلك أطلق سراح الأسرى الصليبيين في حلب؛ وبخاصة رينولد شاتيون صاحب الكرك، وجوسلين صاحب الرها كبادرة، حسن نية [7]، وتحَّرك صلاح باتجاه خصومه، بعد أن تلقى إمدادات من مصر، فعبر العاصي عند شيزر [8] في شهر شوال/شهر نيسان ومّر بقرون حماة حتى وصل إلى تل السلطان، ولم تمض عشرة أيام حتى فأجاه سيف الدين غازي الثاني بعساكره وقد تفَّرق عسكره وهم يوردون أفراسهم الماء، حين تردَّد حاكم الموصل في الهجوم، وقَّرر تأجيل اللقاء إلى اليوم التالي [9].

---

(1) زبدة حلب (523/2).
(2) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص 63.
(3) نصيبين: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام.
(4) البيرة: بلد قرب سميساط بين حلب والثغور الرومية وهي قلعة حصينة.
(5) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الأيوبيين ص 63.
(6) مفرج الكروب (38/2) تاريخ الأيوبيين ص 63.
(7) وليم الصوري (986/2) تاريخ الأيوبيين ص 64.
(8) شيزر: قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعّرة بينهما وبين حماة.
(9) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص 64.

ولما عبَّأ عساكره في صبيحة اليوم التالي في (10شوال/12نيسان) لشن هجوم على معسكر صلاح الدين كان الوقت قد فات [1]. واشتبك الطرفان في رحى معركة شديدة، وكاد أول هجوم للقوات الزنكية أن يتكلَّل بالنجاح، غير أن صلاح الدين قاد ما لديه من قوات احتياطية لرد الهجوم فحطم خطوط خصومه، ولم يحل المساء حتى أضحى سيد الموقف، ومُني الزنكيون بخسارة فادحة، ووقع بعض قادتهم في الأسر، ولكن صلاح الدين منَّ عليهم، وأطلقهم[2]، مظهراً مرونة في التفكير السياسي، ويبدو أنه هدف إلى استقطاب هؤلاء وبخاصة أنه كان من بينهم أصحاب مراكز وتأثير، قنع سيف الدين غازي الثاني بهذه الهزيمة وقَّرر العودة إلى بلاده [3]، ولم يكسب سوى عداء صلاح الدين، وما خلفَّه من أموال في معسكره عند انسحابه بذلها صلاح الدين لرجاله على سبيل المكافأة.

وبهذا الانتصار الحاسم تمهَّد السبيل أمام صلاح الدين لضمّ حلب ونواحيها إلا أنه لم يشأ في هذه الآونة أن يلاحق فلول العساكر الزنكية، ويحاصر حلب، واكتفى بالقيام بشنّ غارات على أملاك خصومه في المنطقة، بعد أن سيطرت عساكره على الحصون المحيطة بحلب شمالاً وجنوباً نتيجة لهذا التشتُّت في الصف الإسلامي، رأى الطرفان ضرورة الدخول في مفاوضات من أجل إحلال السلام، لقطع الطريق على الصليبيين من الاستفادة من هذا الوضع، وخدمة لمصلحة المسلمين العامة، ولذلك قدَّم كل طرف بعض التنازلات، واستقر الرأي على الصيغة التالية:

- أن يكون الجميع يداً واحدة ضد الصليبيين.
- لا يجوز لأحد الأطراف نقض العهد.
- إذا نقض أحد الأطراف العهد أو خالفه، فالباقون يداً واحدة عليه حتى يرجع إلى الوفاق.
- يتنازل صلاح الدين عن قلعة عزاز [4] للملك الصالح.
- وعُقدت الهدنة في شهر محرم عام 572هـ/شهر تموز عام 1176م [5].

---

(1) المصدر نفسه ص 64.
(2) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص 65.
(3) النوادر السلطانية ص 95، تاريخ الأيوبيين ص 65.
(4) عزاز: بليدة فيها قلعة ولها رستاق شمالي حلب بينهما.
(5) مفرج الكروب (46/2)، تاريخ الأيوبيين ص 65.

6 - وفاة سيف الدين غازي الثاني وتولية عز الدين مسعود الأول:

ويبدو أن تطورات الأحداث في الموصل، واتخذت مساراً شدَّ، مجدداً، اهتمام صلاح الدين، ذلك أن سيف الدين غازي الثاني، توفي في شهر صفر عام 576هـ/شهر تموز عام 1180م [1] وقد حدث في عهده شيء عجيب وهو أن الناس خرجوا يستسقون بالموصل سنة خمس وسبعين للغلاء الحادث في البلاد خرج سيف الدين في موكبه، فثار الناس وقصدوه مستغيثين به، وطلبوا منه أن يأمر بالمنع من بيع الخمر، فأجابهم إلى ذلك، فدخلوا البلد وقصدوا مساكن الخمَّارين، وخرَّبوا أبوابها ونهبوها وأراقوا الخمور، وكسروا الأواني، وعملوا ما لا يحِلُّ، فاستغاث أصحاب الدور إلى نُوَّاب السلطان، وخصُّوا بالشكوى رجلاً من الصالحين يقال له أبو الفرج الدَّقَّاق، ولم يكن له من الذي فَعَله الناس من النَّهب فعل إنما هو أراق الخمور، ولما رأى فعل العامَّة نهاهم فلم يسمعوا منه، فلما شُكي أحضر بالقلعة وضُرب على رأسه، فسقطت عِمامتُه، فلما أطلق لينزل من القلعة نزل مكشوف الرأس، فأرادوا تغطيته بعمامته، فلم يفعل وقال: والله لا غطيته حتى ينتقم الله لي ممن ظلمني، فلم يمض غير قليل حتى توفي الدُّزدار المباشر لأذاه.

ثم أعقبه مَرض سيف الدين، ودام مرضه إلى أن توفي، وكان عمره نحو ثلاثين سنة، وكانت ولايته عشر سنين وشهوراً وكان من أحس الناس صورة تام القامة، مليح الشمائل، أبيض اللَّون، مستدير اللحية، متوسط البدن بين السَّمين والدقيق، وكان عاقلاً وقوراً، قليل الالتفاف إذا ركب وإذا جلس، عفيفاً، لم يُذكر عنه شيء من الأسباب التي تنافي العِفَّة، وكان غيوراً شديد الغيرة، لم يترك أحداً من الخدم يدخل دور نسائه إذا كبر، إنما يدخل عليهن الخدم الصِّغار وكان لا يحبَّ سفك الدماء ولا أخذ الأموال مع شّحّ فيه [2].

وبعد وفاته دخلت الموصل في دوامة صراع على البديل، فقد رأى سيف الدين غازي الثاني أن يعهد بالملك لولده معز الدين سنجر وكان عمره آنذاك اثنتا عشرة سنة، إلا أنه خشي على الدولة من بعده من طموحات صلاح الدين بفعل صغر سن ابنه كما أن أخاه عز الدين مسعود، عارض هذا التوجه، بحجة أنه أحق بالسلطة وأيده أمراء الموصل، وأوضح الأمير مجاهد الدين قايماز لسيف الدين غازي الثاني المخاطر التي ستواجهها الدولة الأتابكية من جراء توليه ولد صغير، في الوقت الذي تزداد فيه قوة صلاح الدين في

---

(1) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص 66.
(2) المصدر نفسه ص 66.

بلاد الشام، ويبدو أن سيف الدين غازي الثاني اقتنع برأي أمرائه فعيَّن أخاه عز الدين مسعود خَلَفاً له [1].

7 - وفاة الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود:

كانت وفاته في الخامس والعشرين من رجب من سنة 577هـ، بقلعة حلب ودفن بها وكان سبب وفاته فيما قيل - أن الأمير علم الدين سليمان بن جندر سقاه سُمًّا في عنقود عِنب في الصَّيْدِ، وقيل: بل سقاه ياقوت الأسدي في شراب، وقيل: في خشكنانجة، فاعتراه قولنج، فما زال كذلك حتى مات رحمه الله، وهو شاب حسن الصورة، بهيُّ المنظر، ولم يبلغ عشرين سنة وكان من أعف الملوك ومن أشبه أباه فما ظلم، وصف له الأطباء في مرضه شُرب الخمر فاستفتى بعض الفقهاء في شُربها تداوياً فأفتاه بذلك، فقال له أيزيد شُربها في أجلي، أو ينقص منه شيئاً؟ قال: لا. قال: فوالله لا أشربها فألقى الله وقد شربت ما حّرمه عليَّ، ولما يئس من نفسه استدعى الأمراء فحلَّفهم لابن عَّمه عز الدين مسعود صاحب الموصل؛ لقوة سلطانه وتمكنه ليمنعها من صلاح الدين، وخشي أن يبايع لابن عَّمه الآخر عماد الدين زنكي صاحب سنجار، وهو زوج أخته وتربية والده فلا يمكنه حِفظها من صلاح الدين، فلمّا مات استدعى الحلبيون عز الدين مسعود بن قطب الدين، صاحب الموصل، فجاء إليهم فدخل حَلَب في أبهة عظيمة وكان يوماً مشهوداً، وذلك في العشرين من شعبان، فتسلمَّ خزائنها وحواصلها، وما فيها من السلاح.

وكان تقي الدين عمر بمدينة منبج، فهرب إلى حماة، فوجد أهلها قد نادوا بشعار عز الدين صاحب الموصل، وأطمع الحلبيون عز الدين مسعود في أخذ دمشق؛ لغيبة صلاح الدين بالديار المصرية وأعلموه محبة أهل الشام لهذا البيت الأتابكي فقال: بيْننا وبينه أيمان وعهود، وأنا أغدر به، فأقام بحلب شهوراً، وسار إلى الرّقة فنزلها وجاءته رسل أخيه عماد الدين زنكي يطلب منه أن يقايضه من حلب إلى سنجار وألحَّ في ذلك وتمنع أخوه ثم فعل ذلك على كره منه، فسلَّم إليه حلب، وسلمَّه عماد الدين سنجار والخابور والرّقة، ونصيبين وسروج وغير ذلك من البلاد.

ولما سمع الملك صلاح الدين بهذه الأمور ركب من الديار المصرية في عساكره، فسار حتى أتى الفُرات فعبرها وحاصر إليه بعض أمراء صاحب الموصل، فتقهقر عن لقائه، فاستحوذ صلاح الدين على بلاد الجزيرة بكمالها وهّم بمحاصرة الموصل فلم يتفق

(1) الكامل في التاريخ (446/9، 447).

ذلك، ثم جاء إلى حلب فتسلمها من عماد الدين زنكي [1].

8 - الحصار الأول للموصل:

دفعت التطورات السياسية التي شهدتها بلاد الشام والجزيرة والموصل بعد وفاة الصالح إسماعيل صلاح الدين، إلى مغادرة مصر، والتوجه إلى الشرق ليكون على مقربة من الأحداث الجارية هناك، ويتدخل عندما تقضي الظروف ذلك، وعّد تصرف عز الدين مسعود الأول فيما يتعلق بسياسته في حلب، نقضاً للمعاهدة المبُرمة بين الطرفين الأيوبي والزنكي؛ لأن هذه المدينة وما جاورها من قلاع، تابعة له بحكم تفويض الخليفة، مما يؤدي إلى القضاء على مشروع الوحدة الإسلامية الذي يسعى لتحقيقه، لذلك اتخذ عدة إجراءات وهو في طريقه إلى الشرق، لفك ارتباط حلب بما حولها:

أ – طلب من ابن أخيه تقي الدين عمر، صاحب حماة، وفروخ شاه، حاكم دمشق، وغيرهما من الأمراء بمهاجمة مناطق غرب الجزيرة، وضمّها إلى الأملاك الأيوبية ومنع عبور جيش الموصل، نهر الفرات، لكن تقي الدين عمر، عجز عن منع عز الدين مسعود الأول من دخول حلب، كما كان فروخ شاه منهمكاً في التصدي لمحاولات رينولد شاتيون لاجتياح الجزيرة العربية انطلاقاً من حصن الكرك[2].

ب – كتب رسالة إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله 575هـ - 622هـ - 1180م - 1225م، يشرح فيها بلاءه في الإسلام وجهاده، وما قدّمه من أعمال جليلة للخلافة العباسية، وأوضح دوره في إسقاط الخلافة الفاطمية، وإعادة النفوذ العباسي، إلى مصر، موضحاً له سوء الأوضاع في بلاد الشام، وتعرُّض حارم [3]، لهجوم الصليبيين وغدر صاحب الموصل، واعتداء عسكر حلب على أملاكه، واستنجادهم بالصليبيين، ومراسلتهم بالحشيشية بهدف التعاون معهم ضد مشروع الوحدة الإسلامية الذي يسعى جاهداً لتحقيقه، وذكّره بأن الخليفة المستضيء بأمر الله قلّده حلب وأعمالها، وأنه لم يتركها إلا من أجل ابن نور الدين محمود، ولا يسعه الآن إلا أن يطالب بحقه؛ وعبَّر عن ذلك بقوله: والآن فليرجع كلّ ذي حق إلى حقه، ليقنع برزقه [4] ومن جهته، تحرك عز الدين مسعود الأول باتجاه الصليبيين لاستقطابهم وحثهم على مهاجمة الثغور الإسلامية،

---

(1) البداية والنهاية (553/16).
(2) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص 69.
(3) حارم: حصن حصين وكورة جليلة تجاه أنطاكية وهي الآن من أعمال حلب.
(4) مفرح الكروب (110/2 - 112)، تاريخ الأيوبيين ص 70.

ليشغل صلاح الدين عن قصد بلاده، فأبقى هذا الأخير من غدر صاحب الموصل، فقَّرر أن يولي اهتمامه لمناطق شمال الشام والجزيرة، ويمَّم وجهه صوب حلب والموصل، وانضم إليه أثناء زحفه على حلب مظفر الدين كوكبوري صاحب حّران، وأشار عليه بعبور الفرات والاستيلاء على البلاد الواقعة في شرقه قبل التوجه إلى حلب حتى لا تشغله عن غيرها، ووعده بالمساعدة [1]. والجدير بالذكر أن كوكبوري كان على خلاف مع صاحب الموصل ونائبه قايماز الذي كان قد أقصاه عن ولاية إربل [2].

واتجه صلاح الدين نحو حلب، متحصناً ببراءة الخليفة، وحاصرها مدة ثلاثة أيام في شهر "جمادي الأولى/أيلول"، رحل بعدها إلى الموصل لا نتزاعها من آل زنكي مفضلاً ضمّ الجزيرة والحصون التابعة لها أولاً، فعبر الفرات عند البيرة، وكان صاحبها شهاب الدين محمد بن إلياس الأرتقي يدين بالطاعة، ودخل الأراتقة في حصن كيفا وماردين في طاعته، وانضموا إلى جيشه فهو أمامه مدن الجزيرة، الرها وسروح [3]، نصيبين، الرقة، والخابور وغيرها، فأقطع كوكبوري الرها، ووليَّ حسام الدين أبا الهيجاء السمين نصيبين، ومنح جمال الدين خوشترين الخابور [4].

وبذلك يكون صلاح الدين قد نجح في السيطرة على ديار مضر كلها، وتكوين حلف مناهض لإمارة الموصل، ولم يبق أمامه سوى التوجه إلى الموصل لإخضاعها، والواقع أن الموصل شّكلت مصدر قلق له، وحجر عثرة أمام تحقيق أهدافه فرأى أنه لابد من إخضاعها أو على الأقل ضمان تأييدها له وتحالفها معه، وأدرك أنه لا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بضم الموصل وسنجار وجزيرة ابن عمر [5].

وصل صلاح الدين إلى الموصل في شهر رجب عام 578هـ/شهر كانون الأول عام 1182م وضرب عليها حصاراً مركزاً، ثم ما لبث أن هاجمها، لكنه لم ينل منها، واستعصت عليه بسبب مناعتها، ومتانة أسوارها وبفضل الاستعدادات الضخمة، التي نفَّذها عز الدين مسعود الأول ونائبه قايماز، حيث حشدا العساكر الكثيرة للدفاع عنها، وأظهرا من السلاح، وآلات الحصار ما حارت له الأبصار [6]، وقام صلاح الدين أثناء

(1) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الأيوبيين ص 70.
(2) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص 70.
(3) سروج: بلدة قريبة من حّران من ديار مصر للحموي (216/3).
(4) مفرج الكروب (119/2)، تاريخ الأيوبيين ص 71.
(5) جزيرة ابن عمر: بلدة فوق الموصل بينهما ثلاثة أيام، الحموي (138/2).
(6) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الأيوبيين ص 71.

الحصار بجولة استطلاعية حول المدينة، تأكد لـه استحالة اقتحامها [1]، وتحرك صاحب الموصل في غضون ذلك، يلتمس الحلفاء من كل جانب، فأرسل القاضي بهاء الدين بن شداد إلى بغداد، مستنجداً بالخليفة العباسي لرد صلاح الدين عن بلاده، فكتب الخليفة إلى صدر الدين شيخ الشيوخ، وكان بصحبة صلاح الدين، يأمره بالتوسط في الصلح بين الطرفين [2]. والتمس مساعدة كل من قزل أرسلان صاحب أذربيجان [3]، وبهلوان بن إيلدكز أتابك همذان [4]، وبكتمر سقمان صاحب خلاط [5]، فلم ينجده سوى بكتمر الذى أرسل إلى صلاح الدين يطلب منه الشفاعة والكف عن الموصل[6]، وعلى الرغم من أن صلاح الدين ردَّ رسل بكتمر، إلا أن كل هذه العوامل، دفعته إلى إعادة النظر بخططه لضمّ الموصل بالقوة المسلحة، ومال إلى استعمال الأسلوب السياسي، ويبدو أنه وجد نفسه في موقف حرج، وخشي أن يفقد مكانته، كمجاهد في سبيل الإسلام، بسبب ظهوره بمظهر القامع في دولة الموصل، لذلك عرض على عز الدين مسعود الأول الصلح، فطلب هذا إعادة البلاد التي أخُذت منهم، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك بشرط عدم اعتراضه على ضمّ حلب، فرفض الموصل خيانة أخيه وحرص على التمسك بسيادته على حلب، وأعلن عن استعداده لمساعدته إذا تعرَّض للخطر [7].

ضمّ سنجار:

نتيجة لفشل المفاوضات بين الطرفين، رأى صلاح الدين أن يضيِّق الخناق على الموصل وعَزْلها على حلب، وكانت سنجار هي المدينة التي توفر لـه هذه السياسة لذلك فكَّ الحصار عن الموصل وتوجه إلى سنجار في 16شعبان عام 578هـ/15 كانون الأول عام 1182م، أخطر الخليفة بما استقر عليه رأيه، فحاصرها مدة خمسة عشر يوماً حتى سقطت في يده [8].

ذيول ضّم سنجار:

أثار ضمّ سنجار حفيظة أمراء الجزيرة، فتنادوا إلى عقد حلف دفاعي موجَّه ضد

---

(1) تاريخ الأيوبيين ص 71.
(2) مفرج الكروب (122/1)، تاريخ الأيوبيين ص 71.
(3) أذربيجان: إقليم واسع قصبته تبريز الحموي (128).
(4) همذان: أكبر مدينة في إقليم الجبال.
(5) خلاط: البلدة العامرة المشهورة ذات الخيرات الواسعة.
(6) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الأيوبيين ص 72.
(7) تاريخ الأيوبيين ص 72.
(8) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الأيوبيين ص 72.

سياسة صلاح الدين، وقد أزعجهم توغله في إقليم الجزيرة، وضمُّ سنجار، مما يهدّد أمنهم، وتألف الحلف من شاه أرمن سقمان، صاحب خلاط، وقطب الدين بن نجم الدين ألبي صاحب ماردين، ودولة شاه صاحب بدليس [1]، وأرزن [2]، بالإضافة إلى عز الدين مسعود الأول [3]، وخرج الخلفاء للتصدي له، مستغلين تفرق جيشه في أنحاء الجزيرة وعسكروا في حرزم من أعمال ماردين، ولما علم بمسيرهم جمع جيشه وسار إلى رأس العين[4]، لملاقاتهم، ويبدو أنهم خشوا الدخول في معركة، فتفرقوا عائدين إلى بلادهم [5]، وبذلك أخفق عز الدين مسعود الأول في مسعاه لإخراج صلاح الدين من منطقة الجزيرة على الرغم من تأييد بعض أمرائها له ولم يعْد له من القوة ما يكفي لعرقلة مشاريعه في المنطقة [6].

ضم آمد:

استغل صلاح الدين تفُّرق خصومه، وضعفهم، فتقدم إلى آمد، بعد أن استأذن الخليفة الناصر لدين الله بمهاجمتها، فأذن له. وكان نور الدين محمد صاحب حصن كيفا يلح عليه بمهاجمتها والاستيلاء عليها وتسليمها إليه، وفقاً للاتفاق الذي تّم بينهما [7] وصل صلاح الدين إلى آمد في 17 ذي الحجة عام 578هـ/15 نيسان عام 1183م، وضرب الحصار عليها وكان حاكمها محمد بن إيلدكز ضعيفاً لا يملك من السلطة إلا اسمها، أما حاكمها الفعلي فكان بهاء الدين بن نيسان، الذي اتصف بالشح وسوء السيرة، فمنع الذخائر والأموال عن أهل البلد، وأرسل صلاح الدين في غضون ذلك الرسائل إلى كبار أمراء آمد يعدهم ويمنيهم ويتهددهم إن هم أصّروا على القتال [8]، أذن هذه الظروف التي أحاطت بالسكان إلى التخاذل والتهاون في الدفاع فاضطر ابن نيسان إلى طلب الأمان له ولأهله وأن يمنحه صلاح الدين ثلاثة أيام لنقل أمواله وذخائره، وبعد انقضاء هذه المدة تسلمها صلاح الدين في 10محرم 579هـ/16 أيار 1183م، وسلّمها وأعمالها إلى نور الدين محمد، وأمره بإقامة العدل، وقمع الجور، وأن يكون سامعاً مطيعاً للسلطان من

(1) بدليس: بلدة من نواحي أرمينية قرب خلاط، الحموي (358/1).
(2) أرزن: مدينة مشهورة قرب خلاط.
(3) تاريخ الزمان، غريغوريوس الملطي ص 199.
(4) رأس العين: مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حّران ونصيبين.
(5) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الأيوبيين ص 73.
(6) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص 73.
(7) المصدر نفسه ص 73.
(8) المصدر نفسه ص 73.

معاداة الأعداء ومصافاة الخلاّن في كل وقت، وأنه متى استمد من آمد لقتال الفرنج وجده لذلك يقظان [1].

ثانياً ضُّم حلب:

أضحى صلاح الدين بعد سيطرته على مناطق الجزيرة مجاوراً لإمارة حلب فقّرر أن يضمها إلى أملاكه قبل إخضاع الموصل، فعبر الفرات ونزل على تل خالد من أعمال حلب، وحاصرها حتى استسلمت في شهر محرم عام 579هـ/شهر أيار عام 1183م، ثم سار منها إلى عينتاب [2] فقدم صاحبها ناصر الدين محمد بن خمارتكين الولاء له، وطلب منه أن يبقيه على إمارتها، فوافق صلاح الدين، وتقدّم من عينتاب إلى حلب ونزل عليها في 26 محرم/21 أيار، إلا أنه لم يباشر بقتالها بل نزل بالميدان الأخضر ثم انتقل بعد عدة أيام إلى جبل جوشن، وأوهم عماد الدين زنكي الثاني بأنه يبني المساكن له ولجنده حتى يدفعه إلى الاستسلام تجنباً لإراقة الدماء [3] واضطر عماد الدين زنكي الثاني إلى فتح المفاوضات مع صلاح الدين لتسليمه المدينة، وتولى الأمير حسام الدين طومان الوساطة بينهما وانتهت المفاوضات على الأسس التالية: -

- يتنازل عماد الدين زنكي الثاني عن حلب لصلاح الدين.
- يمنح صلاح الدين عماد الدين زنكي الثاني، سنجار والخابور، ونصيبين وسروج.
- يمنح حسام الدين طومان والرقة.
- يضع عماد الدين زنكي الثاني قواته العسكرية، بتصرف صلاح الدين متى طلب منه ذلك.
- دخل صلاح الدين مدينة حلب بعد إبرام الصلح في 17 صفر عام 579هـ/18 حزيران عام 1183م وسط ترحيب السكان [4].

1 - نتائج ضّم حلب:

ترتب على ضّم حلب من قبل صلاح الدين أن قوي مركزه، وازدادت الجبهة

---

(1) المصدر نفسه ص 74.
(2) عينتاب: قلعة حصينة ورستاف بين حلب وأنطاكية وكانت تعرف بدلوك.
(3) تاريخ الأيوبيين في الشام ص 74.
(4) مفرج الكروب (142/2) تاريخ الأيوبيين ص 75.

الإسلامية تماسكاً، وأضحى من القوة ما حمله على التفرغ لقتال الصليبيين، فاشتدت مخاوف هؤلاء، وعُّدوا هذا الحدث أعظم نكبة حلَّت بهم، بالإضافة إلى أنها أكَّدت الروابط السياسية والعسكرية بين مصر وبلاد الشام، وغدت ممتلكاتهم في بلاد الشام محصورة داخل هذا المحور. فالتمس بوهيموند الثالث صاحب أنطاكية منه الأمان فوافق صلاح الدين على منحه هدنة ريثما يفرغ من استكمال خططه بتوحيد العالم الإسلامي في الشرق الأدنى [1].

2 - الحصار الثاني للموصل:

ما لبثت الأحداث التي استجدت في الموصل أن فرضت على صلاح الدين التدخل مرة أخرى في شؤونها، ففي شهر جمادي الأولى عام 579هـ/شهر أيلول عام 1183م استمع عز الدين مسعود الأول إلى وشاية بعض كبار أمرائه ضد نائبه مجاهد الدين قايماز ممن تربطهم به عداوة مستحكمة، فقبض عليه، وسجنه وصادر أمواله، وكانت إربل، وجزيرة ابن عمر وشهرزور [2]، ودقوقاً [3]، وقلعة عقر الحميدية، تحت حكم قايماز، وبها نواب يحكمون باسمه فلما قُبض عليه، وشقَّ هؤلاء الأمراء عصا الطاعة، وأرسل كل من زين الدين يوسف، صاحب إربل ومعز الدين سنجر شاه، صاحب جزيرة ابن عمر، رسالة ولاء إلى صلاح الدين، وأضحت هاتان المدينتان تابعتين له. وبهذا التصرف اللا مسؤول، ساهم عز الدين مسعود الأول في إضعاف موقفه، أمام صلاح الدين، فمال إلى السياسة فأرسل القاضي بهاء الدين بن شداد إلى الخليفة العباسي في شهر شوال 579هـ/شهر كانون الثاني 1184م، يطلب منه التوسط من جديد في الصلح بينه وبين صلاح الدين استجاب الخليفة إلى طلبه، وأرسل شيخ الشيوخ، وبشير الخادم إلى دمشق للتفاوض مع صلاح الدين لحل المشاكل القائمة بينه وبين صاحب الموصل، وانضم إليهما محيي الدين الشهرزوري ممثلاً عن صاحب الموصل ومعه القاضي ابن شداد [4].

تعثَّرت المفاوضات ثم توقفت، لأن صلاح الدين اشترط أن يكون لأميري إربل وجزيرة ابن عمر، حرية الاختيار في الانضمام إليه أو إلى صاحب الموصل وهذا ما رفضه ممثل عز الدين مسعود الأول الذي تمسك بتبعيتهما لصاحب الموصل، وأصَّر

---

(1) تاريخ الأيوبيين ص 75.
(2) شهرزور: كورة كبيرة واسعة في الجبال بين إربل وهمذان.
(3) دقوقا: مدينة بين إربل وبغداد الحموي (459/2).
(4) النوادر السلطانية ص 111، 112 تاريخ الأيوبيين ص 76.

على ذكر اسميهما في نسخة الصلح، ورجعت الرسل بغير ظفر بطائل [1]، أدرك عز الدين مسعود الأول، الذي أوقع نفسه في هذا المأزق، بحرج موقفه وندم على ما بدر منه بحق نائبه، فتدارك الأمر، وأخرجه من السجن، وأعاده إليه نفوذه السابق [2]. خرج مجاهد الدين قايماز من السجن في الوقت الذي شهدت فيه الموصل تراجعاً في قوتها، وانهياراً في معنويات حكامها، فعمل على إعادة القوة إلى أجهزة الدولة بما فيها الجيش، وطلب مساعدة من القوى المجاورة، ونجحت مساعيه في استقطاب قزل، صاحب أذربيجان، فأمده بثلاثة آلاف جندي [3]، وبعد أن وثق بقدرته على التحرك، قرر إعادة المدن التي خسرتها الأتابكية، فهاجم إربل، لكنه فشل في اقتحامها [4].

ولم يكن صلاح الدين بغافل عما يجري من أحداث، فعزم على التدخل لصالح حليفه زين الدين يوسف، صاحب إربل، والتوجه بعد ذلك إلى الموصل لانتزاعها من يد عز الدين مسعود الأول، الهدنة التي عقدها مع ريموند صاحب أنطاكية لمدة أربع سنوات، فكفل بذلك تأمين مؤخرة جيشه [5]. ولم يلبث أن حشد قواته، وخرج على رأسها إلى حرّان في شهر صفر عام 581هـ/شهر أيار عام 1185م ونزل برأس العين، ثم رحل إلى دنيسر [6]، حيث انضم إليه عماد الدين بن قرا أرسلان الأرتقي ومع عساكر أخيه نور الدين محمد، صاحب حصن كيفا وآمد وساروا جميعاً إلى نصيبين حيث وافاهم فيها معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي الأول صاحب جزيرة ابن عمر [7] وتابع صلاح الدين زحفه باتجاه الموصل، ونزل بالإسماعيليات الواقعة بالقرب منها، في شهر ربيع الأول 581هـ/شهر حزيران 1185م.

وتدعيمها لمواقفه أرسل رسالة إلى الخليفة العباسي يخبره بعزمه على تصفية أموره في الموصل، وأشار إلى أن أهلها يخطبون باسم طغرل السلجوقي سلطان العجم، المعادي للخليفة، ويضربون السكة باسمه، كما أنهم يراسلون الصليبيين، ويحرّضونهم على مهاجمة بلاد المسلمين وأنه لم يأت رغبة في توسيع ملكه أو التخلص من البيت الزنكي، وإنما قصد أن يردهم إلى طاعة الخليفة، ونصرة الإسلام ومنعهم من ارتكاب

(1) مفرج الكروب (155/2، 156) تاريخ الأيوبيين ص 76.
(2) تاريخ الأيوبيين ص 76.
(3) تاريخ الأيوبيين ص 76 انظر: مجاهد الدين قايماز نائب إربل والموصل.
(4) المصدر نفسه ص 76.
(5) المصدر نفسه ص 77.
(6) دُنَيسر: بلدة عظيمة مشهورة من نواحي الجزيرة قرب ماردين.
(7) مفرج الكروب (166/2).

الظلم وانتهاك الحرمات، وقطع صلتهم بسلاجقة العجم، وإلزامهم بما يجب عليهم من حفظ الجار وصلة الرحم [1].

كان الضغط شديداً على عز الدين مسعود الأول، الذي أسقط في يده، فمال إلى المهادنة وأرسل إليه وفداً ضمَّ دولته وابنة عمه نور الدين الدين محمود وغيرهما من النساء، وجماعة من أعيان الدولة لطلب الصلح والكفّ عن حصار الموصل وكان رأي صلاح الدين قبول الصلح لولا اعتراض الفقيه عيسى الهكاري والأمير على بن أحمد المشطوب، اللذين حذّراه من الإقدام على قبول الصلح وقالاً له: مثل الموصل لا يترك لامرأة، فإن عز الدين مسعود ما أرسلهن إلا وقد عجز عن حفظ البلد [2]، فاقتنع برأيهما، واعتذر لوفد الموصل، ومضى يحاصر المدينة لكن اعترضته عدة صعوبات، اضطرته إلى فكّ الحصار عن الموصل لعل أهمها: -

- كان أهل الموصل يخرجون من الجانب الشرقي، فيقاتلون القوات الأيوبية ويعودون إلى داخل المدينة، مما ضايق صلاح الدين.

- لقد حصَّن قايماز البلد بالاستحكامات، وأصلح أوضاع الجيش، ليتمكّن من التصدي للهجمات الأيوبية، فاستبسل أفراده في الدفاع.

- حدث حصار الموصل في فصل الصيف حيث درجة الحرارة مرتفعة والحر شديد، فأمر صلاح الدين بوقف المناوشات العسكرية إلى أن يزول الحر.

- وصادف آنذاك أن خفت مياه نهر دجلة، فأشار المهندسون على صلاح الدين بتحويل مجرى النهر بعيداً عن الموصل، لقطع الماء عن أهلها فيصيبهم العطش ويضطرون إلى الاستسلام. لكن صلاح الدين رأى أن هذا المشروع قد يستغرق وقتاً طويلاً لا يتوفر له، ويأخذ مجهوداً شاقاً قد ينُهك الجيش.

- حدث أثناء الحصار، أن توفي كل من شاه أرمن، صاحب خلاط دون أن يترك ولداً يخلفه في الحكم، ونور الدين محمد، صاحب آمد وحصن كيفا [3]، فأراد صلاح الدين أن يرتّب أوضاع الإمارات الأرتقية بشكل يخدم أهدافه [4].

(3) محاولة ضّم خلاط:

---

(1) مفرج الكروب (166/2)، تاريخ الأيوبيين ص 77.
(2) الكامل في التاريخ (5/10، 6)، تاريخ الأيوبيين ص 78.
(3) تاريخ الأيوبيين ص 78.
(4) المصدر نفسه ص 78.

استولى أحد مماليك شاه أرمن ويدعى سيف الدين بكتمر على الحكم في خلاط، بعد وفاة صاحبها، فتطلع صلاح الدين إليها لضمّها واستشار أركان حربه في ذلك، فأشار بعضهم إلى مواصلة حصار الموصل في حين نصحه البعض الآخر بالرحيل إلى خلاط للسيطرة عليها بحجة أنها تشكل خطوة تمهيدية للسيطرة على باقي القلاع في المنطقة، نتيجة لهذا الاختلاف في وجهات النظر، تردَّد صلاح الدين في اتخاذ قرار ما ولم يتحدد موقفه إلا بعد أن جاءته الكتب من أهل خلاط يستدعونه ليسلموا البلاد إليه [1]. والواقع أن شمس الدين بهلوان بن إيلدكز، صاحب أذربيجان وهمذان، طمع في تملك خلاط عندما علم بوفاة شاه أرمن، فخشي بكتمر أن يفقد منصبه، كما رفض أهل خلاط الخضوع له، وحتى يصدُّه عنها اتفق بكتمر مع أعيان البلد على مراسلة صلاح الدين والدخول في طاعته وفي نيتهم ضرب الطرفين بعضهما ببعض حتى تبقى البلد بأيديهم وسار صلاح الدين باتجاه خلاط دون أن يعلم بنوايا بكتمر وعلى مقدمته ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه، ومظفر الدين ابن صاحب حّران وغيرهما، ونزلوا بطوانة بالقرب من خلاط، وأرسل الفقيه عيسى الهكاري، وغرس الدين قلج أرسلان إلى خلاط لتقرير قواعد التسليم، وتوجه هو إلى ميا فارقين لضّمها، وأما البهلوان فقد تقدم نحو خلاط ونزل قريباً منها، ثم تردَّدت رسل بكتمر بين الطرفين، الذين هدَّدوا البهلوان، من أنه إذا هاجم خلاط، فإن بكتمر سوف يسلّم البلد إلى صلاح الدين، ولكن البهلوان تمكَّن من استمالة بكتمر وزوّجه ابنته واعتذر هذا الأخير لرسل صلاح الدين الذين عادوا دون أن يحققّوا الهدف، وهكذا فشلت جهود صلاح الدين في تملك خَلاط [2]، ومن جهته فقد اعترف قطب الدين سقمان الذي خلف أباه في حكم آمد وحصن كيفا بالطاعة والولاء بعد أن خشي أن يسترد منه آمد [3].

(4) ضُّم ميافارقين [4]:

كانت ميافارقين تحت حكم حسام الدين يولق بن قطب الدين إيلغازي صاحب ماردين وله من العمر عشر سنوات، وفيها حامية لشاه أرمن صاحب خلاط وعلى رأس أجنادها أسد الدين يرنقش، وقد رفض الانضواء تحت راية صلاح الدين وأعلن عصيانه، فاضطر صلاح الدين إلى حصار المدينة إلا أنه لم يتمكّن من اقتحامها، فمال إلى استعمال أسلوب الدهاء السياسي، فاتصل بزوجة قطب الدين المقيمة فيها وأوهمها

(1) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الأيوبيين ص 79.
(2) النوادر السلطانية ص 117 - 118.
(3) آمد: أعظم مدن ديار بكر وأجلها وأشهرها ذكراً.
(4) المصدر نفسه.

أن يرنقش اتفق معه على تسليم البلد، كما أرسل إلى هذا الأخير يخبره بميل الخاتون إليه، وبهذا الأسلوب السياسي ضَّم البلد إلى أملاكه في 29/جمادى الأولى عام 581هـ/28 آب عام 1185 [1]. ووصل إلى صلاح الدين آنذاك كتاب من الخليفة العباسي بتقليده النظر في أمر ديار بكر، ومصالح أيتام ملوكها، فخطب له في الولايات الأرتقية وضُربت النقود باسمه.

ثالثاً: حصار الموصل الثالث ودخولها في طاعة صلاح الدين:

عندما انتهى صلاح الدين من أمر ميافارقين عاد إلى الموصل ليحاصرها للمرة الثالثة وجعل طريقه على نصيبين ووصل إلى كفر زحار في شعبان من سنة 581هـ وأقام فيها لحين انتهاء فصل الشتاء، ثم جاء رسول عز الدين مسعود صاحب الموصل يطلب الصلح [2]، ومرض صلاح الدين في ذلك الوقت، فرحل إلى حّران، فاغتنم عز الدين مسعود الأول هذه الفرصة، وحدَّد محاولاته لتحقيق التفاهم معه، بعد أن يئس من مساندة الخليفة له، ووقوف سلطان العجم إلى جانبه، فأرسل بهاء الدين بن شداد وفَّوضه بالتوقيع على الصلح[3]، وكانت اتفاقية الصلح بين الطرفين تنص على ما يأتي:

1- يسلم عز الدين مسعود أتابك الموصل إلى صلاح الدين شهرزور وأعمالها، وولاية القرابي، وجميع ما وراء الزاب من أعمال مع ولاية بني قفحاق [4].
2- يتخلى صلاح الدين عن الموصل وأعمالها إلى عز الدين مسعود زنكي وتكون إدارتها لها على أن تكون تابعاً إلى صلاح الدين "حكماً ذاتيا" في ضمن إطار الدول الأيوبية.
3- يجب على عز الدين أن يخطب باسم صلاح الدين على المنابر والبلاد التابعة له، وأن تقطع الخطبة السلجوقية عن تلك البلاد، كما وافق عز الدين مسعود على سك النقود باسم صلاح الدين في تلك البلاد.
4- على عز الدين مسعود الالتزام بالحضور مع عساكره في خدمة صلاح الدين متى استدعاه، وأن يشترك الطرفان في مجاهدة الصليبيين، واسترجاع فلسطين.
5- يتعهد الطرفان بالحفاظ على المعاهدة السابقة، ووضعت بنودها بالقول في ذي

---

(1) الكامل في التاريخ (8/10، 9) تاريخ الأيوبيين ص 80.
(2) الفكر السوقي الأيوبي ص 161.
(3) النوادر السلطانية ص 119 تاريخ الأيوبيين ص 80.
(4) الفكر السوقي الأيوبي ص 162.

الحجة سنة 581هـ/3 آذار 1186م واستمر العمل بهذه المعاهدة وصلاح الدين على ذلك الصلح لم يتغير حتى وفاته [1].

وبهذا الاتفاق استطاع صلاح الدين توحيد الجبهة الإسلامية تحت زعامته وأصبح أقوى حاكم مسلم في المنطقة وبهذا الإنجاز أصبح أمامه السعي لتحقيق الهدف الكبير وهو تحرير القدس وبقية الأرض الإسلامية من الغزاة الصليبيين [2].

5 - تعقيب على علاقة صلاح الدين مع الأسرة الزنكية :

في الوقت الذي جرى فيه إبداء التشكيك في حقيقة دوافع صلاح الدين، وعلاقته بالأسرة الزنكية، من جانب بعض المؤرخين المعاصرين له، وبعض الباحثين المحدثين، فإن هذا الارتياب يفقد أهميته، ولا يستند إلى أي أساس صحيح بدليل:

- كان صلاح الدين حريصاً، بدقة شديدة، على أن يعرض على الخليفة دوافع عمله في مراسلاته معه.
- إن الدوافع التي برَّر من خلالها أعماله، ترجع دائماً إلى جهاد الصليبيين وتحرير بيت المقدس، بالإضافة إلى الحاجة الماسة لتوحيد الصف الإسلامي، من أجل تطوير متابعة الجهاد بنجاح.
- اتصف صلاح الدين، أثناء تعامله مع الزنكيين بالكرم، بصورة دائمة بعد هزيمته لهم في المعركة، وفي أساليب فرض الحصار عليهم.
- بعد تحقيق وحدة مصر وبلاد الشام، وضمان تأييد الموصل، شرع صلاح الدين فوراً في تحقيق الهدف الثاني الذي يمثل اهتمامه الأساسي، وهو تدمير الجيش الميداني للمملكة اللاتينية، وفتح بيت المقدس، وسنرى أن الأمر الأول تحقق في معركة حطين التي تأثرت نتيجتها بقدرته على نشر قوة إسلامية كبيرة وموحَّدة في الوقت الصحيح، وفي المكان الصحيح، في حين تحققَّ الأمر الثاني بعد معركة حطين وجاء نتيجة للانتصار في هذه المعركة [3].

ومن الأخلاق التي تميز بها صلاح الدين في صلح الموصل أنه لم يغادر منطقة الموصل حتى أهدى صاحبها ووالدته وزوجته وابنة نور الدين وعدداً آخر من رجال الدولة هدايا عظيمة بما يزيد على عشرة آلاف دينار سوى الخيل والطيب والتحف

(1) النوادر السلطانية ص 163.
(2) الفكر السوقي الأيوبي ص 163.
(3) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص 81.

الغربية والثياب وتوجه بعد أن زال عنه المرض مع أخيه العادل أوائل سنة 582هـ إلى حلب ثم دمشق وكتب إلى جميع عماله بالأقطار بإخراج الصدقات وقد تصدق في دمشق وحدها بخمسة آلاف دينار مصرية [1].

رابعاً: محاولات الشيعة الإسماعيلية للقضاء على صلاح الدين:

انقسمت الطائفة الإسماعيلية بعد وفاة الخليفة الفاطمي المستنصر في عام 487هـ/1094م إلى فرقين: النزارية التي اعتقد أتباعها بأحقية ابنه الأكبر نزار بالخلافة وقد فروا إلى الشرق بعد أن تعرضوا لحملة اضطهاد في مصر وكان على رأسهم الحسن بن الصبّاح الذي أسس في بلاد فارس ما يُعرف بالفرقة النزارية وغلب على اتباعه اسم الحشيشية، أو الباطنية. والفرقة الثانية هي المستعلية، أتباع المستعلي، الابن الثاني للمستنصر وتعمق الحسن بن الصباح في دراسة العقيدة الإسماعيلية [2].

وكان الحسن بن الصباح الحميري قد نشأ بالري في بلاد فارس وتأثر في شبابه بالدعوة الإسماعيلية وزار مصر والتقي بالمستنصر [3] وظل الحسن بن الصباح مقيماً في مصر زهاء ثمانية عشرة شهراً كان خلالها موضع حفاوة المستنصر، فأمده بالأموال وأمره بأن يدعو الناس على إمامته في بلاد العجم [4].

وكان الحسن بن الصباح يرى أن تولية نزار تتفق مع التعاليم الإسماعيلية التي تشترط في الإمام أن يكون أبناء أبيه [5]، ولاشك بأن إقامة الحسن بن الصباح في مصر أتاحت له التعُّرف على أحوال الدولة الفاطمية، وما آلت إليه الدعوة الإسماعيلية في ظل سيطرة بدر الجمالي، وقد عزم على إقامة الدعوة للمستنصر في فارس وخراسان، وحرص على تكوين مجتمع إسماعيلي [6] صرف وحين عاد إلى بلاد فارس بدأ بنشر دعوته إلى نزار رافضاً البيعة للمستعلي معتبراً نفسه نائب للإمام مخططاً لإنشاء دولة إسماعيلية جديدة في المشرق الإسلامي [7] بعد أن رجع إلى فارس وبلغ أصفهان سنة 473هـ وباشر دعوته السرية، ولما ضيق نظام الملك عليه الخناق رحل إلى قزوين

(1) صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد ص 230.
(2) تاريخ الأيوبيين ص 96.
(3) الخلافة العباسية، فاروق فوزي (188/2).
(4) تاريخ الفاطميين د. محمد طقوش ص 392، 393
(5) المصدر نفسه ص 393.
(6) المصدر نفسه ص 393.
(7) الخلافة العباسية (188/2).

واستولى على قلعة "الموت" الحصينة وجعلها مقراً لـه ولجماعتـه [1]، فتوسعوا وأكثروا الفساد في البلاد [2]، ولم يكد الحسن الصباح يستولى على قلعة الموت حتى بادر بالاستيلاء على القلاع المجاورة فأطلق دعاته لتحقيق هذا المأرب [3].

ولم يمض وقت طويل حتى كان الصباح قد استولى على المنطقة الواقعة جنوب قزوين برمتها بعد أن سيطر على القلاع المتناثرة في أرجائها، والتي تبلغ نحو الستين قلعة وكانت هذه القلاع تقع في الغالب وسط وديان صالحة للزراعة وبالقرب من موارد ثابتة للمياه، وكانت القلعة تكون وحدة اقتصادية عسكرية مستقلة بذاتها، يعيش أهلها معتمدين على أنفسهم في زراعة الأرض والدفاع عن القلعة وما حولها في مواجهة أي غزو أو اعتداء [4] واستطاع الحسن بن الصباح في عهد نظام الملك السلجوقي أن يوجه أتباعه الشديدي الولاء لـه لتحقيق أهداف سياسية مناهضة لخصومه وبخاصة الخلافة العباسية السنية فقد تحدّى شرعيتها بالإضافة إلى بعض الأمراء المسلمين من السلاجقة وأهم ما استخدمه من أسلحة هو الاغتيال [5]، وقام أتباعه بسلسلة عمليات اغتيال كان ضحيتها الكثير من رجال الدولة العباسية وأمرائها، فعظم أمرهم، وقويت شوكتهم، وخشيهم الناس، وامتلأوا منهم رعباً وكان الحسن بن الصباح وأتباعه من الإسماعيلية الشيعية شديد البغض لأهل السنة وتوسعت الحركة الإسماعيلية الباطنية الشيعية وامتلكوا عدة حصون هامة في بلاد الشام مثل القدموس والعليقة والكهف ومصياف وغيرها والواضح أنهم ارتاعوا لزوال الخلافة الفاطمية وانتصار المذهب السني في مصر، وشعروا بالخطر يتهددهم في بلاد الشام، وبخاصة أن نور الدين محمود كان قد قيّد توسعهم على الطرق الشرقي، من أجل ذلك أرسلت القيادة في قلعة الموت في عام 558هـ/1163م رشيد الدين سنان البصري، المعروف بشيخ الجبل ليتولى إقليم النصيرية في بلاد الشام، فتوجه هذا إلى حلب متنكراً بزي الدراويش وبقي فيها عدة أشهر، ثم تنّقل بين قلاع الحشيشية حتى استقر في مصياف [6].

1- محاولة الشيعة الإسماعيلية الأولى لإغتيال صلاح الدين:

(1) حركة الحشاشين ص 65، 66.
(2) الجهاد والتجديد في القرن السادس الهجري ص 32.
(3) دولة الإسماعيلية في إيران، محمد السعيد ص 95.
(4) دولة السلاجقة ص 129.
(5) المصدر نفسه ص 97.
(6) تاريخ الأيوبيين ص 97.

نقم الشيعة الباطنية - الحشاشون - على صلاح الدين لأنه أسقط الخلافة الفاطمية، وتقدم لبلاد الشام لتوحيده، وضمّه إلى مصر مما يشكل تهديداً لكيانهم، فتعاون راشد الدين مع كل من الصليبيين والزنكيين للقضاء عليه [1] وراشد الدين، كبير الإسماعيلية وطاغوتهم وهو أبو الحسن سنان بن سلمان بن محمد البصري الباطني، صاحب الدعوة النزارية [2]، كان ذا أدب وفضيلة، ونظر في الفلسفة وأيام الناس وفيه شهامة ودهاء ومكر وغور [3]. وقال عنه الذهبي: وكان سخطة وبلاء متنسكاً متخشعاً واعظاً وكان يجلس على صخرة لا يتحرك منه سوى لسانه، فربطهم وغلوا فيه، واعتقد منهم فيه الإلهية فتباً لهم ولجهلهم، فاستغواهم بسحر وسيمياء، وكانت له كتب كثيرة ومطالعة وطالت أيامه [4] ففي عام 570هـ/1174م عندما توجه صلاح الدين الملك الصالح إسماعيل إلى رشيد الدين، يطلب مساعدته وبذل له أموالاً كثيرة، وعدداً من القرى، ثمناً لقتل صلاح الدين، والواضح أن مصلحة مشتركة قد جمعت الطرفين هي العداء صلاح الدين، أرسل رشيد الدين سنان جماعة من أتباعه الفدائيين إلى المعسكر الأيوبي فاكتشفهم أمير يدعى خمارتكين، فقتلوه، ووصلوا إلى خيمة صلاح الدين في جوف معسكره، وحمل عليه أحدهم ليقتله، فقتل دونه، واستبسل الباقون في الدفاع عن أنفسهم قبل أن يُقتلوا جميعاً، ومن المستبعد أن يكون تحريض كمشتكين هو الدافع الأساسي والوحيد لرشيد الدين، للقيام بتلك العملية؛ لأنه كان يعمل لأسباب خاصة به، وهو أن صلاح الدين، منذ أن دخل بلاد الشام، أضحى العدو الرئيسي للحركة، لأنه كان يعمل على توحيد أهل السنة هناك الذي من شأنه أن يهدد كيان حركته [5].

2- المحاولة الثانية:

لم يتوقف رشيد الدين عن محاولات اغتيال صلاح الدين رغم فشل المحاولة الأولى، بل زاد تصميمه فأرسل في ذي القعدة عام 571هـ/أيار عام 1176م جماعة من أتباعه يتنكرون في زي الجنود، فدخلوا المعسكر الأيوبي أثناء حصار قلعة عزاز، وباشروا الحرب مع جند صلاح الدين واختلطوا بهم يتحينون الفرصة لقتل صلاح الدين

(1) سير أعلام النبلاء (183/21).
(2) المصدر نفسه (183/21).
(3) المصدر نفسه (185/21).
(4) تاريخ الأيوبيين ص 97.
(5) تاريخ الأيوبيين ص 97.

وفيما كان الجند مشغولون بحصار القلعة، مَّر صلاح الدين بخيمة الأمير جادلي الأسدي لتشجيع الجند على مواصلة القتال، فهجم عليه أحد الإسماعيلية وضربه بسكينه على رأسه، إلا أن صلاح الدين كان يلبس خوذته الحديدية فوق رأسه، فعاد الرجل وضربه على خدّه فجرحه، فأمسكه صلاح الدين بيده وحاول تعطيله وهو مستمر في هجومه وضربه إلى أن أدركه الأمير سيف الدين يازكوج وقتله، ثم هجم فدائي ثاني على صلاح الدين، فتصدى له داوود بن منكلان وقتله، ثم هجم فدائي ثالث لتنفيذ المهمة، فاعترضه الأمير علي أبو الفوارس، وطعنه ناصر الدين محمد بن شيركوه وقتله، وخرج رابع من الخيمة هارباً، فطارده الجند وقتلوه [1].

وقد تسبب هذا الحادث المفاجئ في اضطراب صلاح الدين حتى أنه فحص جنوده جميعاً، فمن أنكره أبعده، ومن عرفه أقرّه، وحرص حرصاً شديداً واتخذ تدابير احترازية صارمة وبالطبع، فقد كان للحادث أثر في نفوس الجند، حتى أنهم توقفوا عن القتال أمام عزاز، وخاصة عندما أشيع أن صلاح الدين قد قتل، وعلى سبيل الاحتياط الشديد ضرب حول سرادقه برجاً من الخشب. وقد أرسل القاضي الفاضل ليطمئن الملك العادل أخا صلاح الدين فيها على أخيه، ويروي له تفاصيل الحادث الحقيقية[2].

3- أسلوب صلاح الدين في تأديب الإسماعيلية :

أرسل صلاح الدين إلى رشيد الدين سنان يتهدده فرد عليه زعيم الحشاشين بهذه الأبيات:

يا للرجال لأمر هالَ مقطعُهُ ::: ما مرَّ قطّ على سمعي توقّعُهُ
فإذا الذي بقراعِ السيف هدَّدنا ::: لا قام مصرع جنبي حين تصرعُهُ
قام الحمَامُ إلى البازي يُهدِّدُهُ ::: واستيقظت لأسود البَرِّ أُصبعه

وقفت على تفصيل كتابكم وجُملهِ، وعلمنا ما هدَّدنا به من قوله وعمله، فبالله العَجَبُ من ذبابة تطنُّ في أذن فيل، وبعوضة تُعَدُ في التماثيل، ولقد قالها من قبلك قوم فدمّرنا عليهم، وما كان لهم من ناصرين، أَلِلْحَق تدحصون وللباطل تنصرون؟**{وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَب يَنقَلِبُونَ}**، ولئن صدر قولك في قطع رأسي، وقلعِكَ لِقِلاعي من الجبال الرواسي، فتلك أَمانيُّ كاذبةٌ، وخيالات غير صائبة، فإن الجواهر لا تزول بالأعراض، كما أنَّ أرواح لا تضمحل بالأمراض، وإن عُدْنا إلى الظاهر وعَدْنا عن الباطن فلنا في

(1) تاريخ الأيوبيين ص 98.
(2) المصدر نفسه ص 98.

رسول الله أسوةٌ حسنة «**ما أوذي نبي ما أوذِيْت**» [1]. وقد علمت ما جرى على عنزته وشيعته، فالحال ما حال والأمر ما زال، وقد علمتم ظاهر حالنا، وكيفيَّة رجالنا، وما يتمنوَّنَهُ من الفوت ويتقربون به من حياض الموت، وفي المثل: أو للبطٌ تُهدَّوُ بالشطٌ؟ فهيِّئ للبلايا أسباباً، وتدرَّع للرَّزايا جلباباً، فلأظهرن عليك منك، وتكون كالباحث عن حتفه بظلفه، وما ذلك على الله بعزيز، فكن لأمرنا بالمرصاد واقرأ أوّل النّحل وآخرص [2].

بعد محاولات الاغتيال الفاشلة أخذ صلاح الدين بالاحتراز الشديد، حتى أنه ضرب حول سرادقه برجاً من الخشب [3]، وكان للحادث أثر بالغ في نفوس الجند الذين اضطربوا وتوقفوا عن القتال أمام عزاز، واضطرب أمر الناس أيضاً، حين شاع في البلاد أن صلاح الدين قد قُتل، فاضطر صلاح الدين، عندئذ إلى الطواف بين جنده ليشاهده الناس، كما أرسل القاضي الفاضل كتاباً إلى الملك العادل، أخي صلاح الدين، يطمئنه فيه ويروي له حقيقة الحادث [4] وصمم صلاح الدين على أن يضع حداً لهذه الحركة التي وضح خطرها في بلاد الشام وجهز حملة عسكرية في شهر محرم عام 572هـ/شهر تموز عام 1176م، فحاصر حصونهم ونصب المجانيق الكبار عليها وأوسعهم قتلاً وأسراً وساق أبقارهم وخَّرب ديارهم، وهدم أعمارهم وهتك أستارهم حتى شفع فيهم خاله شهاب الدين محمود تكشى صاحب حماة، وكانوا قد راسلوه في ذلك؛ لأنهم جيرانه، فرحل عنهم وقد انتقم منهم [5]، ودمّر قوتهم [6].

وقد اضطر الحشاشون إلى التفاهم مع صلاح الدين بعد فشل محاولاتهم المتكررة لاغتياله، وعدم قدرتهم على التصدي لقواته، لذلك فضَّلوا وقوفه على الحياد على أن يكون عدواً مباشراً لهم. ومهما يكن من أمر، لم تشر المصادر التاريخية بعد إبرام الصلح، إلى أي احتكاك بين الطرفين وانفرد ابن الأثير برواية تشير إلى تعاونهما عندما طلب صلاح الدين من رشيد الدين سنان قتل ريتشارد قلب الأسد، وكونراد مونتفيرات صاحب صور، ووعده بدفع الأموال مقابل ذلك، لكن سنان خشي أن يتخلص صلاح الدين من أعدائه فيتفرغ للحشيشة ويقضي عليهم، لذلك اكتفى بقتل كونراد وعدل عن

---

(1) روي بأسانيد ضعيفة من حديث أنس وبريدة وجابر، الجامع الصغير.
(2) أول النحل:{أتي أمر الله} وأخر ص:{ونتعلمن نبأه بعد حين}.
(3) العماد الأصفهاني ص 98، تاريخ الأيوبيين ص 98.
(4) كتاب الروضتين نقلاً عن تاريخ الأيوبيين ص 98.
(5) كتاب الروضتين (423/2).
(6) موسوعة تاريخ العرب العصر الأيوبي ص 63.

قتل ريتشارد [1].

خامساً: علاقة صلاح الدين مع سلاجقة الروم:

كان عز الدين قلج أرسلان الثاني عام (550هـ - 585هـ/1155م - 1192م) سلطاناً على سلاجقة الروم، وكان بينه وبين البيزنطيين صراعاً انتهى بانتصاره على البيزنطيين في معركة ميريوكيفالون في عام (571هـ/1176م) وكان انتصاره مؤثراً على وجود الدولة البيزنطية حيث أنه تم في هذه المعركة تحطيم القوة الميدانية للجيش البيزنطي نهائياً، وذكر المؤرخون أن هذه المعركة، معركة ميريو كيفالون، قررت مصير آسيا الصغرى والشرق بصورة نهائية فلم يعد بوسع البيزنطيين تهديد بلاد الشام بعد ذلك [2].

1- المواجهة الأولى بين صلاح الدين وقلج أرسلان:

فكر قلج أرسلان الثاني في بلاد الشام وأراد أن يؤمن له طريقاً إلى الفرات فتظاهر بالسياسة والمداهنة وأرسل رسولاً إلى دمشق، اجتمع بصلاح الدين وطلب منه حصن "رُعبان" وحصن "كيسوم" وهما إلى جنوب قلج أرسلان، فرعبان، مدينة بالثغور بين حلب وسميساط قرب الفرات معدودة بالعواصم [3]، وكيسوم قرية من أعمال سميساط [4]. وجاء رسول قلج أرسلان ليطلب هذا الطلب بحجة أنهما كانا سابقاً من أملاك سلاجقة الروم وضمهما والده مسعود، ثم اضطر يتنازل عنهما لنور الدين محمود وأغضبت هذه الرسالة صلاح الدين، وأثارت غيظه، فأغلظ القول لرسول أرسلان، بل وتوعّد قلج أرسلان الثاني، فعاد الرسول إلى قونية، وأخبر سلطانها بما جرى، فغضب قلج أرسلان وهاجم حصن رعبان في عام 575هـ/1179م. وكان يحكم هذا الحصن شمس الدين بن المقدم من قبل صلاح الدين فهاجمه قلج أرسلان بقوة كبيرة تساوي عّدة آلاف وعندما علم صلاح الدين أرسل قوة عسكرية تقدر بألف فارس بقيادة المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه صاحب حماة [5]، فتقدم بقواته حتى اقترب من المعسكر السلجوقي ودار حوله مستكشفاً، فتبين له أن جيش أرسلان مسترخ غافل، فاغتنم هذه الفرصة، ووزع قسماً من قواته حول المعسكر، ومعهم الآلات الموسيقية، البوقات

(1) تاريخ الأيوبيين ص 88.
(2) موسوعة تاريخ العرب العصر الأيوبي ص 58.
(3) معجم البلدان (51/3).
(4) المصدر نفسه (497/4).
(5) الكامل في التاريخ (148/9).

وغيرها واستعد هو من القسم الآخر للانقضاض على المعسكر وهيأ جوّ المفاجأة وفي الوقت المحدد أعطى إشارة البدء للموسيقيين بإطلاق الموسيقى وإحداث جلبة مصطنعة، فلما سمع الجنود السلاجقة تلك الضجة من أصوات، الموسيقى وجلبة الرجال، واصطكاك الحديد، وشدة وقع حوافر الخيل التي كانت تدور باستمرار حول المعسكر، هالهم ذلك، وتوهموا أنهم مطوقون بأعداد هائلة من الجنود قّدب الذعر بينهم، وغرقوا في بحر من الفوضى ثم لاذوا بالفرار طالبين النجاة، تاركين وراءهم خيامهم وأثقالهم، وانقض عليهم في تلك اللحظة المظفر تقي الدين عمر بفرسانه، وأخذ يعمل فيهم قتلاً وأسراً، وهم هاربون لا يلوون على شيء، وغنم جميع ما تركوه، ثم منّ على الأسرى، وسرَّحهم وعاد قلج أرسلان الثاني إلى ملطية يجر أذيال الهزيمة والعار، وملطية بلد من بلاد الشام المشهورة، والمتاخمة إلى بلاد الشام [1].

2- المواجهة الثانية بين صلاح الدين وقلج أرسلان الثاني:

وبعد مرور عام على هذه الأحداث، عاد النزاع مرة أخرى بين صلاح الدين وقلج أرسلان وكان سبب هذا النزاع مسألة عائلية، فقد أقام قلج أرسلان الثاني علاقات سياسية مع أصحاب حصن كيفا، ووثق هذه العلاقات بزواج ابنته سلجوقة خاتون بنور الدين الدين محمد بن قرا أرسلان، صاحب الحصن، ومنحه قلج أرسلان الثاني عدداً من الحصون التي تجاور بلاده كمهر وبعد فترة من الزمن، أحبَّ نور الدين محمد مغنية فمال إليها، وتزوجها وأعرض عن زوجته السلجوقية، فكتبت إلى أبيها تشكوه، فبعث إليه، أما أن تحسن عشرتها وإما أن تفارقها، فلم يهتم به، عند ذلك قرر قلج أرسلان الثاني القيام بحملة عسكرية ضد نور الدين محمد لتأديبه والاستيلاء على بلاده، فاستجار هذا الأخير بصلاح الدين، فأرسل صلاح الدين إلى قلج أرسلان يطلب منه أن يتخلى عن محاولته ضد إمارة كيفا، فأجابه بأنه أعطى نور الدين محمد عدة حصون مجاورة لبلاده عندما زوّجه ابنته، وقد سلك سلوكاً سيئاً مع ابنته فقرر استعادة ما أعطاه من الحصون، ومن ثم ترددت الرسل بين الرجلين دون أن تسفر عن نتيجة، فاضطر صلاح الدين إلى التوجه على رأس جيشه إلى بلاد الروم لإيقاف قلج أرسلان الثاني عند حّده والتحق به نور الدين محمد فتقدم إلى تل باشر وهي قلعة حصينة شمال حلب [2]، ثم عرج على رعبان، فلما علم قلج أرسلان الثاني بتقدم صلاح الدين خشي الهزيمة وأرسل على الفور أحد كبار مساعديه وهو الأمير اختيار بن عفراس، ليشرح له الموقف، وإنه لابد من

(1) معجم البلدان (192/5)، موسوعة تاريخ العرب ص 59.
(2) معجم البلدان (40/2)، موسوعة تاريخ العرب ص 60.

تأديب نور الدين محمد على تصرفه وأسفرت الاتصالات عن اجتماع الأطراف الثلاثة: نور الدين وقلج أرسلان وصلاح الدين في شهر جمادى الأولى 576هـ/تشرين الأول عام 1180م [1].

وبعد مداولات مستفيضة، تمسك صلاح الدين بوجهة نظره وهدَّد بالزحف على ملطية وبلاد السلاجقة، إن أصَّر قلج أرسلان على تأديب نور الدين محمد وكان الأمير السلجوقي قد شاهد أثناء إقامته في المعسكر الأيوبي، شدة صلاح الدين، وقوته وكثرة سلاحه ودوابه، فهاله الأمر، لذلك بذل جهداً مضنياً في شرح القضية من الوجهة الدينية، فاقتنع صلاح الدين بكلامه وأخيراً تّم الاتفاق على ما يلي: -

- يُطلقّ نور الدين محمد المغنية بعد سنة.
- إذا لم يفعل ذلك يتعاون صلاح الدين مع قلج أرسلان الثاني على حربه.
- يدخل جميع أمراء الموصل وديار بكر والأرتقة في هذا الصلح.

ويبدو أنه جرى اتفاق ثنائي على هامش المباحثات بين صلاح الدين والأمير السلجوقي بمساعدة الأول للسلاجقة في حربهم ضد الأرمن من كيليكية الذين كانوا يهاجمون الأراضي السلجوقية بدليل أنه هاجم بلاد الأرمن عقب توقيع الصلح مباشرة وقبل أن يعود إلى بلاد الشام [2]. ومهما يكن من أمر، فقد كان لهذا الاحتكاك الأيوبي السلجوقي، انعكاسات سلبية، إلى حد ما، على العلاقات بين الطرفين في المستقبل، توضَّحت في التحالفات التي قامت بين صلاح الدين والإمبراطور البيزنطي إسحاق أنجليوس من جهة وبين قلج أرسلان الثاني والإمبراطور فريدريك بربروساً من جهة ثانية [3].

سادساً: علاقة صلاح الدين مع الخلافة العباسية:

لم تكن علاقات صلاح الدين مع العباسيين في يوم من الأيام سيئة أو لم تصل إلى درجة السوء والعداء، فلربما فترت أحياناً لكنها لم تصل إلى العداء وإذا نظرنا إلى صلاح الدين نجده قد ارتبط بالخلافة العباسية نتيجة ارتباطه بالزنكيين، فزعيم الزنكيين نور الدين محمود كان محباً للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله لاقتناعه بعقيدته السنية ولذلك فقد حرص على تأييده واحترامه، وبادله الخليفة مشاعره هذه بإرساله الخلع

(1) موسوعة تاريخ العرب ص 60.
(2) النوادر السلطانية ص 98، الكامل في التاريخ (447/9 - 449).
(3) تاريخ الأيوبيين ص 92.

والتشريفات لـه، وحضّ أمراء الولايات على مساندته ضد الصليبيين [1].

من ذلك بدأ صلاح الدين علاقة جيدة مع الخليفة العباسي حينما كان وزيراً للخليفة الفاطمي العاضد عام 567هـ/1171م وخطا صلاح الدين خطوة هامة في علاقته بالعباسيين حينما قطع الخطبة للخليفة الفاطمي وأقامها للعباسيين على منابر مصر، معبراً عن طاعته وولائه للخليفة العباسي [2]، ولما مات نور الدين محمود، واستغل الصليبيون حالة بلاد الشام المضطربة وهاجموها، أرسل صلاح الدين إلى الخليفة العباسي، يصور له الأوضاع في بلاد الشام السياسية، وهجوم الصليبيين على بلاد المسلمين، وبيّن جهوده في إنهاء الخلافة الفاطمية في مصر، وإعادة الخطبة للعباسيين وتصديه للصليبيين عندما هاجموا الإسكندرية في مصر، وأسباب ضمه لليمن وبعد هذه الرسالة المطولة التي عدّد فيها إنجازاته التي تؤكد إخلاصه وولاءَه للخليفة العباسي، طلب منه أن ينعم عليه بتقليد يشمل مصر والمغرب واليمن والشام، وكل ما تشتمل عليه ولاية نور الدين وكل ما يفتحه الله للدولة بسيوفنا، وسيوف عساكرنا ولم نقيمه من أخ وولد من بعدنا، تقليداً يضمن للنعمة تخليداً مع ما ينعم به من السمات التي يقتضيها الملك [3].

كانت هذه الرسالة من صلاح الدين وما نتج عنها نقطة تصب في بناء صرح دولة صلاح الدين، فقد استجاب الخليفة لمطالبه وأنعم عليه بحكم مصر والشام وقد رأى فيه الخليفة العباسي شخصية تملأ فراغ نور الدين محمود بعد وفاته، مما جعله يعترف له بالسلطنة لأنه أصبح في نظره الشخصية الوحيدة التي يمكن أن تدافع عن المسلمين وقد ساهم هذا التقليد وغيره، مثل إرسال دار الخلافة له عندما كان يحاصر حماه في عام 570هـ/1174م تحمل إليه التشريفات والتقليد والتمليك والتفويض، ساهم كل هذا في إضفاء المهابة على صلاح الدين أمام أمراء المسلمين وكذلك الصليبيين الذين أقلقهم صعود نجمه وهذه العلاقة الطيبة مع الخلافة العباسية، أفادت صلاح الدين في صراعه مع الأمراء المسلمين المناوئين له والمتطلعين للسلطة وبخاصة الزنكيين لذلك كان دائماً ما يطلع الخلافة على إنجازاته وانتصاراته ويحيلها إلى مفهوم حرصه على الخلافة وولائه وانتمائه لها والمحافظ على وجودها[4]، وكانت العلاقة في عهد الخليفة

(1) موسوعة تاريخ العرب ص 54.
(2) المصدر نفسه ص 54.
(3) صبح الأعشى للقلقشندي (13/85 - 90).
(4) كتاب الروضتين نقلاً عن موسوعة تاريخ العرب ص 55.

المستضيء متميزة.

1- وفاة الخليفة المستضيء بأمر الله 575هـ:

هو الخليفة أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله يوسف بن المقتفي محمد بن المستظهر أحمد بن المقتدي الهاشمي العباسي بويع بالخلافة وقت موت أبيه في ربيع الآخر سنة ست وستين وخمس مئة، وقام بأمر البيعة عضُد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء فاستوزره يومئذ، وكان ذا حلم وأناة ورأفة وبر وصدقات. وقال ابن الجوزي في المنتظم: بُويع، فنودي برفع المكوس، ورد المظالم، وأظهر من العدل والكرم مالم نَرَهُ من أعمارنا، وفرق مالاً عظيماً على الهاشميين (1).

وقال ابن الجوزي:.. وفي خلافته زالت دولة العبيدَّية بمصر، وخُطب له بها، وجاء الخير فغلقت الأسواق للمسَّرة وعُملت القباب وصنَّفتُ كتاباً سمَّيتهُ "النصَّر على مصر" وعرضته على الإمام المستضيء (2)، وخُطب له باليمن، وبرقة، وتوزر، وإلى بلاد الترك ودانت له الملوك وكان يطلب ابن الجوزيَّ، ويأمره أن يعظ بحيث يسمع، ويميل إلى مذهب الحنابلة، وضعف بدولته الرّفض ببغداد وبمصر وظهرت السنَّةُ وحصل الأمن (3).

وكان ابتداء مرض المستضيء في أواخر شوَّال من هذه السنة فأرادَت زوجته أن تكتم ذلك فلم يمكنها ووقعت فتنة كبيرة ببغداد ونهبت العوام دوراً كثيرة، وأموالاً جزيلة، فلمَّا كان يوم الجمعة الثاني والعشرين من شوَّال خُطِبَ لوليَّ العهد أبي العباس أحمد بن المستضيء وهو الخليفة الناصر لدين الله وكان يوماً مشهوداً نُثر الذهب فيه على الخُطباء والمؤذنين ومن حضر ذلك عند ذكره على المنبر والتنويه باسمه في العشْر، فلمَّا كان يوم السبت سَلخ شوَّال، وله من العمر تِسعٌ وثلاثون سنة وكانت مدَّة خلافته تسع سنين وثلاثة أشهر وسبعة عشر يوماً وغُسِّل وصُليَّ عليه من الغد، ودفن بدار النَّصر التي بناها وذلك عن وصيتَّه التي أوّصاها وترك من بعده ولدين؛ أحدهما: وليُّ عهده وهو عُدَّةُ الدين والدنيا أبو العباس أحمد الناصر لدين الله، والآخر: أبو منصور هاشم وقد وزر له جماعة من الرُّوساء، وكان من خيار الخلفاء أمَّاراً بالمعروف نهَّاءً عن المنكر، وضع عن الناس المكُوسات والضرائب، ودرأ عنهم البدع والمصائب، وكان حليماً وقوراً كريماً، فرحمه الله تعالى وبلَّ ثراه وجعل الجنة مأواه وبويع بالخلافة

(1) المنتظم (233/10).
(2) سير أعلام النبلاء (70/21).
(3) المصدر نفسه (70/21).

من بعده [1].

2- علاقة صلاح الدين بالخلافة العباسية بعد المستضيء:

توفي الخليفة العباسي المستضيء بالله وخلفه ابنه أبو العباس أحمد، الذي تلقَّب بلقب الناصر لدين، فبايعه صلاح الدين وأرسل رسولاً إلى بغداد للتعزية بوفاة والده والتهنئة له بمناسبة توليه مهام الخلافة [2]. كما توفي، في هذه الأثناء، سيف الدين غازي الأول صاحب الموصل، وخلفه أخوه عز الدين مسعود الأول، فكتب صلاح الدين إلى الخليفة يطلب منه أن يفوّض إليه الأمور كما كانت أيام والده [3].

استجاب الناصر لدين الله لمطالب صلاح الدين، وأرسل شيخ الشيوخ صدر الدين أبا القاسم عبد الرحمن، شهاب الدين بشير الخادم، بالتفويض والتشريف الجديد وذلك في شهر رجب/شهر كانون الأول ولقَّبه بالألقاب السنية منها: الملك الأجلُّ السيد صلاح الدين، ناصر الإسلام، عماد الدولة، فخر الملة، صفي الخلافة، تاج الملوك والسلاطين، قامع الكفرة والمشركين، قاهر الخوارج والمرتدين عن المجاهدين، ألب غازي يوسف بن أيوب، أدام الله علوَّه، على هذه السجايا مقبلاً [4]. وأمره بتقوى الله والحفاظ على الصلاة، وقصد المساجد الجامعة، ولزوم نزاهة الحرمات واجتناب المحرمات، وإحسان السيرة في الرعايا، وإظهار العدل في الرعية، وحفظ الثغور، ومجاهدة الكفار، والاعتماد في إدارة شؤون البلاد على أصحاب الدين والعفاف، ثم أشار إليه بواجب شكر الخلافة على ما أسبغت عليه من التأييد والاحترام [5].

وأطمأن صلاح الدين لمساندة الخليفة له وتقبَّل كتابه بقبول حسن، وكتب إليه يقول: الخادم ولله الحمد بعدَّد سوابق في الإسلام، والدولة العباسية لا يعمرها أولية أبي مسلم لأنه والى ثم وارى، ولا آخرية طغرلبك لأنه نصر ثم حجر، والخادم خلع من كان ينازع الخلافة رداءها... فكسر الأصنام الباطنية بسيفه الظاهر [6] وكان يخطب له على المنابر في جميع الأراضي التابعة له، ويرتدي الخطباء في كل مناسبة شارات الدولة العباسية،

---

(1) البداية والنهاية (541/16).
(2) تاريخ الأيوبيين ص 85.
(3) كتاب الروضتين (60/3 - 61، 65)، تاريخ الأيوبيين ص 85
(4) مآثر الإنافة في معالم الخلافة (87/3 - 88).
(5) تاريخ الأيوبيين ص 85.
(6) كتاب الروضتين (3 - 85، 86) تاريخ الأيوبيين ص85.

ويرفعون أعلامها السوداء [1].

وفي المقابل، امتنع الخليفة عن منح الخلع السوداء والعمامة السوداء لأحد المقربين أو الأمراء ممن يدخل في حكم صلاح الدين، وذلك احتراماً لـه وتقديراً لشخصه وتمييزاً لـه عن غيره، من ذلك، أنـه رفض في عام 578هـ/1182م منح الأمير جمال الدين خوشترين الذي هرب من الموصل وأراد الالتحاق بصلاح الدين، خلعة سوداء وعمامة سوداء بناء على طلبه [2]، مما يدل على رغبة الخليفة الصادقة في الحفاظ على العلاقات الطيبة مع صلاح الدين [3]، إلا أن الخليفة العباسي لم يمنحه تقليداً بولاية الموصل، وكان صلاح الدين قد وجّه عدة رسائل إلى بغداد يوضح حاجته في الحصول على تقليد بإمارة الموصل، لكن طلبه لم يتحقق، برغم أنه أعطاه تقليد بإمارة آمد في ديار بكر [4] وتعد الموصل قريبة جداً من حدود الخلافة، مما يثير مخاوف الخليفة.

ويذكر المؤرخون أن السبب الذي حمل الخليفة الناصر على عدم إعطائه تقليداً بولاية الموصل ربما يكون الخوف من امتداد سلطان صلاح الدين إلى البلاد القريبة من الخلافة كالموصل والجزيرة، وفي خلاف صلاح الدين مع سيف الدين غازي صاحب الموصل استجاب صلاح الدين لرغبة الخليفة وانسحب من سنجار، ولكن صلاح الدين تجاوز هذا الموقف بعتاب رقيق، ولكنه استمر في طاعته، ومراسلة الخليفة، وإطلاعه على إنجازاته وأعماله أولاً بأول وخاصة معركة حطين، وخاطبه قائلاً: الخادم يشرح من نبأ هذا الفتح العظيم، والنصر الكريم [5].

وثق الخليفة بصلاح الدين، وقدّر لـه هذا الإخلاص، في صور هدايا أرسلها لـه بعد فتح بيت المقدس، ومن جملة هذه الهدايا لوحاً منقوشاً عليه بعض الآيات والكلمات لتعليقه على باب بيت المقدس قال فيه: أجري هذا الفتح على يد محي دولته وسيف نصرته والقائم بطاعته، المخلص في عبوديته والمجاهد تحت رايته، يوسف بن أيوب، معين أمير المؤمنين [6]. وقد حاول الوشاه الإيقاع بين الخليفة وصلاح الدين الأيوبي بعد

(1) رحلة ابن جبير جبير ص 51، تاريخ الأيوبيين ص 85.
(2) تاريخ الأيوبيين ص 86.
(3) المصدر نفسه ص 86.
(4) كتاب الروضتين نقلاً عن تاريخ الأيوبيين ص 86.
(5) كتاب الروضتين نقلاً عن موسوعة تاريخ العرب ص 57.
(6) مختصر التاريخ من أول الزمان إلى تاريخ بني العباس ص 57.

معركة حطين [1]، يأتي الحديث عن ذلك في محله بإذن الله.

سابعاً: علاقة صلاح الدين بالدولة البيزنطية:

كان الإمبراطور مانويل كومنين من أكثر المعادين لصلاح الدين والمسلمين وكان حليفاً للصليبيين، ولكن عندما تولى الإمبراطور أندرو نيقوسى كومنين في عام 578هـ/1182م، تغيرت الأحوال وأقام علاقات قوية مع صلاح الدين نظراً لمصلحته المشتركة مع صلاح الدين فقد كان عدوّه الأول السلاجقة الذين دمروا الجيش البيزنطي في معركة "ميريوكيفالون" في أواخر عام 571هـ/1176م، كما أن كراهية البيزنطيين للصليبيين اللاتين والإيطاليين لاستيلائهم على مقدرات واقتصاد بيزنطية جعلت أندرو نيقوسى كومنين، يتقارب أكثر من صلاح الدين وكان هذا التقارب يهدف إلى المحافظة على مصالحهما المشتركة "اللاتين" الصليبية بشكل عام والسلاجقة بشكل خاص وقد نظر الغرب الأوروبي إلى هذا التقارب على أنه انتهاك لرابطة الدين من بيزنطة وتحطيماً للتقاليد، لأن الحروب بين الجانبين الإسلامي والبيزنطي كادت تكون مستمرة منذ ظهور الإسلام، ومع ذلك أندرو نيقوسى كومنين وخليفته إسحاق الثاني أنجيلوس، بدلاً هذه السياسة، وتقربا من صلاح الدين أكبر عدو للصليبيين، بل أنهما حاولا جاهدين أن يقضيا على الإمارات الصليبية في الشرق [2]، وسبق ذلك تقارب شخصي عندما نفي أندرو نيقوسى كومنين إثر عزله عن إمارة كليكية بعد عام 1116م، فقد لجأ إلى دمشق، فأحسن نور الدين محمود استقباله، وقد وضع أندرو نيقوسى كومنين أساساً لهذه العلاقة عندما أرسل سفيره إلى صلاح الدين في عام 581هـ/1185م، يعرض عليه قيام تحالف بينهما على أسس أهمها: -

- يبذل صلاح الدين الولاء لأندرو نيقوسى كومنين نظراً لأنه إمبراطور.
- يتعاون الطرفان ضد السلاجقة وإذا تم الاستيلاء على آسيا الصغرى من السلاجقة تضاف إلى أملاك الإمبراطورية.
- يتعهد أندرو نيقوسى ببذل المساعدة لصلاح الدين في نضاله ضد الصليبيين في بلاد الشام. ولكن قبل أن يقرر صلاح الدين الرد على هذه الشروط خلع أندرو نيقوسى عن القدس في جمادى الآخرة عام 581هـ/أيلول عام 1185م، ثم قتل، وأصبح إسحاق

(1) موسوعة تاريخ العرب ص 57.
(2) تاريخ الأيوبيين ص 104، 105.

أنجيلوس إمبراطور عام 1185 - 1195م [1].

وقد رغب صلاح الدين في استمرار التقارب مع الإمبراطور إسحاق الثاني استجابة لرغبة الثاني الذي رأى ضرورة الحفاظ على هذه العلاقة ليواجه أعداءه وهم: النورمان في صقلية الذين هددوا العاصمة القسطنطينية، والصليبيين في بلاد الشام والسلاجقة في آسيا الصغرى، فأقر المعاهدة السابقة مع أندرو نيقوسى بعد أن عدّل صلاح الدين في بعض شروطها بما يتفق وقوته ومكانته التي لا تضاهيها قوة البيزنطيين المنهارة [2]، وقد أغضب هذا الاتفاق الصليبيين في الشرق، فعهد ريمون أمير طرابلس الصليبي، إلى إلقاء القبض على ألكسيوس أخي الإمبراطور، وكان في طريقه من دمشق إلى القسطنطينية، حيث كان لا يزال ضيفاً على صلاح الدين، وذلك أثناء مروره بعكا في عام (582هـ/1186م) ثم قام بإيداعه السجن، واستنجد الإمبراطور إسحاق بصلاح الدين وحثه على مهاجمة الصليبيين والضغط عليهم لإطلاق سراح أخيه، وهاجم في العام التالي جزيرة قبرص كي يخفف الضغط عن صلاح الدين، غير أن القوات البيزنطية تعرضت للهزيمة، كما جرى تدمير الأسطول البيزنطي، أما صلاح الدين فقد هاجم في تلك الأثناء مملكة بيت المقدس الصليبية مستغلاً الأحداث لتحقيق هدفه الأول وهو ضرب الصليبيين واستطاع صلاح الدين أن يفتح بيت المقدس والمدن الساحلية، وأطلق ألكسيوس الذي عاد إلى القسطنطينية وبعد أن انتصر صلاح الدين على الصليبيين، أرسل رسلاً إلى الإمبراطور البيزنطي، تحمل إليه الهدايا، وتخبره بما حققه من انتصارات ونجاحات فاستضاف الإمبراطور رسل صلاح الدين في قصر وسط العاصمة، وجَّدد التحالف مع صلاح الدين [3]، ورد الإمبراطور برسالة ممائلة واستقبل صلاح الدين الرسولين البيزنطيين في ذي القعدة عام 583هـ/عام 1188م بعد أيام من رفع الحصار عن صور، بحضور أبنائه وأمرائه وموظفيه.

وقد أشاد إسحاق الثاني انجيلوس في رسالته لصلاح الدين بما قام به من جهد في سبيل إطلاق سراح أخيه، أعرب عن امتنانه، وسأل صلاح الدين الرسولين عن أحوال الإمبراطورية، ولعل أهم خبر حملته البعثة، الإشارة إلى ما حدث في الغرب من الدعوة إلى حملة صليبية جديدة، وقد كان صلاح الدين على علم بهذه الأنباء، فتبين له إخلاص إسحاق الثاني، وقد شعر صلاح الدين وإسحاق الثاني بالانزعاج من هذه الأنباء وقد أراد

(1) تاريخ الأعمال المنجزة وليم الصوري (1035/2).
(2) موسوعة تاريخ العرب العصر الأيوبي ص 65.
(3) المصدر نفسه ص 65.

صلاح الدين ضمان مساعدة إسحاق الثاني أنجيلوس أثناء اجتياز الحملة بلاده التي تعد ممراً طبيعياً للحملات البرية، لذلك أرسل مع الرسولين البيزنطيين عند عودتهما، رسلاً من قبله للتفاوض مع الإمبراطور البيزنطي بشأن قيام تحالف عسكري بين الدولتين الأيوبية والبيزنطية للتصدي للغزو الصليبي، وكان من بين الهدايا التي أرسلها صلاح الدين إلى إسحاق الثاني أنجليوس منبراً لتنصيبه في مسجد القسطنطينية مع اهتمامه بعمارته، والمحافظة على الشعائر الإسلامية في العاصمة البيزنطية، وأبدى إسحاق الثاني أنجيلوس رغبة في مراعاة الشعائر اليونانية في كنائس فلسطين [1] وسيأتي الحديث مفصلاً عن العلاقة الأيوبية البيزنطية في الحملة الصليبية الثالثة لاحقاً بإذن الله.

ثامناً: علاقة صلاح الدين بالصليبيين قبل حطين:

كان صلاح الدين يهدف إلى توحيد مصر وبلاد الشام من أجل تحقيق النصر على الصليبيين وفي نفس الوقت أدرك صلاح الدين أن مقاومة الصليبيين وإشغالهم لا يجوز أن ينتظر تحقيق الوحدة الشاملة ولذلك اعتمد صلاح الدين في استراتيجية العمل على هذين الخطين، خط الوحدة، وخط مقاومة الصليبيين واستغلال كل ظرف يمكن أن يفيد منه في مقاومة الصليبيين ولم يغفل صلاح الدين في خضم ذلك أن يتبع العديد من الاستراتيجيات وكان منها:

أ - العمل على زيادة تحصين مناطق سيطرته في مصر والشام، سواء أكان ذلك بزيادة قواته العسكرية والاهتمام بقسميها البري والبحري، أو بالعمل على بناء تحصينات وقلاع تؤمن له ولقواته حماية أفضل أو لجعلها مناطق مراقبة لتحصينات الصليبيين، فاهتم بتحصين القاهرة والإسكندرية ودمياط وبنى القلاع في بلاد الشام مثل قلعة عجلون، وفي نفس الاتجاه العمل في سبيل السيطرة على القلاع والحصون الواقعة تحت السيطرة الصليبية أو العمل على منع أو إعاقة العمل الصليبي لبناء قلاع وتحصينات يمكنها أن تهدد المناطق الإسلامية.

ب - العمل على عقد اتفاقيات مع قوى يمكن أن تؤثر على إمداد الصليبيين، كما يمكنها أن تؤثر على الجبهة الإسلامية اقتصادياً وعسكرياً وكان التركيز في هذا المجال على المدن الإيطالية التجارية.

ج - اللجوء إلى عقد هدن مع بعض الأطراف الصليبية بهدف التفرغ لمحاربة طرف صليبي آخر مستغلاً في ذلك أوضاع الصليبيين وخلافاتهم وخاصة ما كان بين

(1) موسوعة تاريخ العرب العصر الأيوبي ص 66.

مملكة بيت المقدس وإمارة طرابلس، كما كان يستغل هذه الهدن للتفرغ لإتمام تحصينات عسكرية أو للعمل على إتمام الوحدة منطلقاً في ذلك من أن طبيعة الأوضاع لا تتيح له المحاربة على أكثر من جبهة واحدة في نفس الوقت [1].

وقد استفاد صلاح الدين لتحقيق ذلك من ظروف كانت تميل لصالح الجبهة الإسلامية التي تسير إلى طريق الوحدة في حين أن الجبهة الصليبية كانت تسير في خط الانحدار حسب تعبير المؤرخ روبرت باينه، كما استفاد صلاح الدين من الروح الجهادية التي بدأت معالمها بالوضوح منذ أيام عماد الدين زنكي ومن بعده ابنه نور الدين، وعند الحديث عن المعارك التي خاضها صلاح الدين الأيوبي ضد الصليبيين في هذه الفترة علينا أن ندرك بأنها كانت معارك متعددة وفي أكثر من موقع ولكنها لم تكن في هذه المرحلة لتصل إلى مرحلة خوض حرب شاملة مع الصليبيين [2] وأهم تلك المعارك هي:

1 - غارات الصليبيين على أملاك صلاح الدين: 570هـ - 572هـ:

كان أول ما التزم به ريموند الثالث من واجبات، بوصفه وصياً على عرش مملكة بيت المقدس، أن يحَّد من نمو قوة صلاح الدين ومنعه من ضّم حلب، لذلك لم يتوقف الصليبيون عن شن الغارات على أملاكه، خلال الصدام بينه وبين الزنكيين، وإن كانت هذه الغارات ضعيفة الأثر، محدودة النطاق، بسبب اضطراب أوضاعهم [3]، ففي شهر محرم عام 571هـ/شهر آب عام 1175م انتهز الملك الصليبي بلدوين الرابع فرصة انشغال صلاح الدين مضطراً لتهدئة الجبهة مع الصليبيين ليتفرغ لقتال سيف الدين غازي أمير الموصل، حتى لا يحارب على جبهتين في وقت واحد، الزنكيين في الشمال والشرق، والصليبيين في الجنوب والغرب، فجدّد الهدنة مع مملكة بيت المقدس [4] ونقض الصليبيون الهدنة في العام الثاني، في غمرة استمرار النزاع بين صلاح الدين والزنكيين، فهاجموا الأراضي التي يسيطر عليها صلاح الدين، فأغار ريموند الثالث صاحب طرابلس على إقليم البقاع، في حين زحف الجيش الملكي من الجنوب بقيادة الملك وهمفري سيدتبنين، ويبدو أن ريموند الثالث تعَّرض للهزيمة على يد ابن المقدم أمير بعلبك، غير أن الجيشين الصليبيين اجتمعا سوياً، واصطدما بشمس الدولة توران

(1) دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك ص 91.
(2) المصدر نفسه ص 92.
(3) تاريخ الأيوبيين ص119.
(4) الكامل في التاريخ (422/9)، تاريخ الأيوبيين ص 119

شاه، أخي صلاح الدين ونائبه في دمشق، عند عنجر في البقاع، وكان قد خرج لنجدة بعلبك غير أن اللقاء لم يكن حاسماً، ولم يكد صلاح الدين يُقدم من الشمال حتى انسحب الصليبيون من المنطقة، ولم يشأ أن يتعقبَّهم، وإنما فضَّل العودة إلى مصر تاركاً أخاه توران شاه في دمشق [1].

2 - الصليبيون يغيرون على حمص وحماة:

لاشك بأن الصليبيين أضاعوا من أيديهم فرصة ذهبية، لضرب، صلاح الدين في مصر، في الوقت الذي لم يُثبِّت أقدامه في شمالي بلاد الشام، ذلك أن الظروف كلها كانت مهيأة لهم بعد أن وضع الإمبراطور البيزنطي كل ثقله لنجاح الحملة، وقد أثبتت الأيام أن تلك الفرصة لم تتح للصليبيين بعد ذلك [2]، وإذا كان مشروع الحملة الصليبية - البيزنطية المشتركة على مصر قد باء بالفشل، فإن ذلك لم يمنع الصليبيين من الاستفادة من الحملة الفلمنكية لمهاجمة الأراضي الإسلامية التي يسيطر عليها صلاح الدين في بلاد الشام، ففي 4 ربيع الأول عام 572هـ/11أيلول عام 1176م غادر صلاح الدين بلاد الشام إلى مصر، بعد أن عقد الصلح مع الملك الصالح إسماعيل صاحب حلب [3]، فانتهز بلدوين الرابع الفرصة، وكرّر الطلب من فيليب الألزاسي بضرورة القوات الإسلامية المتمركزة على الحدود الشرقية، لإمارتي الرها وطرابلس، فوافق الأخير على طلبه ثم غادر بيت المقدس في شهر ربيع الآخر عام 573هـ/نهاية شهر تشرين الأول عام 1177م متوجهاً إلى الشمال لمساعدة كل من ريموند الثالث صاحب طرابلس وبوهيموند الثالث صاحب أنطاكية بناءً على طلبهما، حيث بدا ممكناً إنجاز شيء ما في ظل غياب صلاح الدين، وأمَّده الملك بمائة فارس وألفين من المشاة [4]، وأغارت كتيبة من الجيش على بلاد حمص، فوقعت في كمين وفقدت كل ما حصلت عليه من غنائم، بينما أغار كل من فيليب وريموند الثالث بقواتهما على حماة، التي كادت أن تسقط لولا صلابة المسلمين في الدفاع عنها، وارتدّا خائبين بعد حصار دام أربعة أيام دون أن يحقّقا [5] شيئاً، ويبدو أن الجدب الذي عّم المنطقة في تلك السنة كان من بين أسباب هذه الغزوة، وفي الكتاب الفاضلي المرسل إلى بغداد بتوقيع صلاح الدين ما يدل على ذلك: خرج الكفار إلى البلاد

(1) وليم الصوري (886/2)، تاريخ الأيوبيين ص 119.
(2) الحركة الصليبية (754/2)، تاريخ الأيوبيين ص 119.
(3) النوادر السلطانية ص 96، تاريخ الأيوبيين ص 122.
(4) تاريخ الأيوبيين ص 122.
(5) الكامل في التاريخ (429/9، 430).

الشامية، فاسخين لعقد كان مُحْكما، غادرين غدراً صريحاً، مقّدرين أن يجهزوا على الشام لما كان بالجدب جريحاً، ونزلوا على ظاهرة حماة يوم الإثنين الحادي والعشرين من جمادى الأولى [1].

3 - الإغارة على حارم:

كانت حارم مدينة تقع شرقي نهر العاصي على بعد اثني عشرة ميلاً من أنطاكية، وقد طلب أمير أنطاكية بوهيموند الثالث معه فيليب الألذاسى أن يشن هجوماً على مدينة حارم ووعده ببذل المساعدة، فتوجه فيليب إليها بصحبة ريموند الثالث، وكانت آنذاك تحت حكم كمشتكين، الأتابك السابق للملك الصالح إسماعيل، وقد سادها الإضراب الداخلي بسبب مساندة أهلها لكمشتكين الذي كان على خلاف مع الملك الصالح إسماعيل [2] حوصرت حارم على يد الصليبيين في أوائل شهر جمادي الآخرة شهر تشرين الثاني فتناسى أهل حارم خلافاتهم وقاوموا الحصار، الذي استمر أربعة أشهر، وكانت مقاومتهم باسلة في الوقت نفسه أخذ الحلبيون يشنون غارات على الأراضي الصليبية القريبة، وأرسل الصالح إسماعيل فرقة عسكرية اجتازت خطوط الصليبيين، وانضمت إلى حامية المدينة [3]، وخرج صلاح الدين، في هذا الوقت، من مصر ليهاجم مملكة بيت المقدس الخالية ممن يحميها، فخشي الصليبيون أن يستنجد الحلبيون به كما عزموا على مساعدة مملكة بيت المقدس، لكن الملك الصالح إسماعيل فاوضهم على فك الحصار لقاء دفع مبلغ من المال، كما أنذرهم بأنه سيسلم المدينة إلى صلاح الدين، فقاموا بفك الحصار، وفشلوا في الاستيلاء عليها [4].

4 - معركة الرملة:

كانت هذه المعركة تجربة مريرة لصلاح الدين ولعله تعلم منها أن الخطأ مقارعة الصليبيين قبل أن يحقق توحيد الجبهة الإسلامية، فبتحقيقه لهذه الوحدة سيحصل على قوة زاخرة هائلة مستعدة للبذل في سبيل تحطيم قوة العدو المحتمل إضافة إلى أنه سيكون بوسع جيشه التحرك في رقعة أوسع على الرغم من أن صلاح الدين قد ألحق جزءاً لا يستهان به من بلاد الشام بدولته في مصر، منذ أن توجه إلى دمشق عام 570هـ/1174م،

---

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (471/2).
(2) موسوعة تاريخ العرب ص 74.
(3) الكامل في التاريخ (431/9).
(4) تاريخ الأعمال (1005/2)، موسوعة تاريخ العرب ص 76.

ثم ضم حمص وحماة، وحارم، إلا أن أجزاء واسعة ظلت خارج نطاق نفوذه [1].

وبعد أن عاد صلاح الدين إلى مصر سنة 572هـ/1176م قرر أن يقوم بحملة ضد الصليبيين، فخرج من القاهرة في عشرين ألف مقاتل [2] في شهر جمادى الأولى 573هـ/تشرين الثاني 1177م وخيّم بمدينة بلبيس المصرية الواقعة على بعد عشرة فراسخ من مدينة مصر على طريق الشام[3] ثم توجه منها إلى الأجزاء الجنوبية من فلسطين، فنزل على عسقلان التي يحتلها الصليبيون، وتمكن من أسر بعض الصليبيين، فأمر بضرب أعناقهم [4]، ولم يجد صلاح الدين أية مقاومة تذكر من العدو، فتفرق جنده يكتسحون القرى مغيرين، وأخذوا يجمعون الغنائم، ثم جمع صلاح الدين بعض جنوده وتقدم بهم نحو بلدة الرملة القريبة من الساحل والتي كانت من أكبر المدن الفلسطينية يومئذ [5]، فاعترضهم نهر تل الصافية فتفرقوا يبحثون عن مكان يصلح لعبورهم، وبينما هم في هذه الحالة هجمت عليهم قوة صليبية، قبل أن يرتبوا أوضاعهم والظاهر أن الصليبيين كانوا يراقبون تحركاتهم، فباغتوهم في الوقت المناسب، وكان يقودهم الأمير الشهير أرناط ويسانده في مهمته بلدوين الثالث ملك بيت المقدس [6]، ولم يكن مع صلاح الدين في تلك اللحظة سوى عدد ضئيل من أمرائه وجنده، لأن أكثرهم تفرقوا في طلب الغنيمة [7] ثم بدأت المصادمات وتجمع جند صلاح الدين، واشتبكوا مع الصليبيين وقد أبلى بعض قادة صلاح الدين وأقاربه بلاء حسناً، لاسيما تقي الدين عمر وابنه أحمد وكذلك ضياء عيسى الهكاري وأخوه ظهير الدين وقد أسراً وبقيا في الأسر سنتين فافتدى صلاح الدين الفقيه عيسى بستين ألف دينار [8]، فقد تقدم تقي الدين عمر وباشر القتال ببسالة بين يدي عمه وقتل عدداً من الصليبيين، ثم تقدم ابنه أحمد، وأبدى ضروبا من الشجاعة، وقتل عدداً من أفراد العدو، وعاد إلى أبيه سالماً ثم أمره أبوه بالعودة إليهم ثانية قائلاً له: عد يا أحمد، فإن العود أحمد" فعاد إليهم وقاتلهم فاستشهد [9]. إلا أن

(1) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين ص 411.
(2) مرآة الزمان نقلاً عن الجيش الأيوبي ص411.
(3) معجم البلدان (479/1).
(4) مفرج الكروب نقلاً عن الجيش الأيوبي ص 411.
(5) يصفها ياقوت بأنها مدينة عظيمة بفلسطين وكانت قصبتها سابقاً.
(6) تاريخ الجيوش، كاستلان ص 59 الجيش الأيوبي ص 412.
(7) مفرج الكروب (61/2)، الجيش الأيوبي ص 412.
(8) سنا البرق الشامي (256/1)، الجيش الأيوبي ص 412.
(9) سنا البرق الشامي (256/1)، الجيش الأيوبي ص 412.

المسلمين لم يستطيعوا الصمود بوجههم، وقد تحدث صلاح الدين عن الهزيمة، وكيف أدى تغيير مواقع الجنود وأجنحة الجيش إلى هذه النتيجة المؤسفة قائلاً: في وقت صار العدو على مقربة منهم رأى بعض الجنود أن يعبروا الميمنة إلى جهة الميسرة والميسرة إلى جهة القلب ليكون التل الموجود بأرض الرملة خف ظهورهم، وليس أمامهم فبينما هم مشغولون بهذه الخطة هاجمهم العدو [1].

- أسباب الهزيمة في معركة الرملة:

- مباغتة الصليبيين للجيش الأيوبي أثناء تفرق أفراده قبل أن يرتبوا أنفسهم في الوقت المناسب.
- هذه المباغتة أثرت إلى حدوث خلل في صفوف وأجنحة الجيش الأيوبي وتفرق قادة الجيش، ولجوئهم إلى أسلوب المبارزة الفردية التي لم تجد نفعاً في مثل هذه الحالة.
- اختفاء صلاح الدين عن الأنظار حتى ظن أنه قتل.
- ابتعاد الجيش الأيوبي عن خطوط التموين وانقطاع الزاد والماء عنه [2]. ومما يؤكد فداحة الخسارة التي ألحقت بالجيش الأيوبي في هذه الموقعة قول المؤرخين إن الهزيمة: كانت وهناً لم يجبره الله إلا بوقعة حطين [3]. وقد قتل في هذه المعركة وجرح وأسر معظم من كان مع صلاح الدين [4] وخرج هو من وسط المعركة سالماً بأعجوبة، فبعد أن تمت الهزيمة، حمل أحد الصليبيين عليه، فقاربه حتى كاد أن يصل إليه فقتل الصليبي بين يديه، وتكاثر الفرنج على صلاح الدين فمضى منهزماً يسير قليلاً ويقف ليلحقه العسكر، إلى أن دخل الليل، فسلك طريق البرية ومضى في نفر يسير إلى مصر، ولقوا في طريقهم مشقة شديدة، وقل عليهم القوت والماء، وهلكت دوابهم جوعاً وعطشاً وسرعة سير [5]، وفي الطريق إلى مصر اختفى صلاح الدين عن الأنظار، فأوقع ذلك الرعب في الصفوف، فخرج القاضي الفاضل مع بعض رفاقه يلتمس مكانه، وبثهم وسط الصحراء حتى اهتدوا إلى مكانه، وأسعفوه بما كان معهم من الزاد

(1) كتاب الروضتين (703/1)، الجيش الأيوبي ص 413.
(2) مفرج الكروب (60/2، 61)، الجيش الأيوبي ص 413.
(3) النوادر ص 53 الجيش الأيوبي ص 413.
(4) الكامل في التاريخ (443/11)، الجيش الأيوبي ص 414.
(5) مفرج الكروب (60/2)، الجيش الأيوبي ص 414.

ثم وصل الركب إلى القاهرة في منتصف جمادى الآخرة 573هـ/كانون الأول 1175م [1]. إلا أن خبر سلامته قد وصل إلى مصر على الهجن السريع [2] قبل وصوله هو، لكي يضع حداً لكل من تسول نفسه التمرد على حكمه لاسيما من أعوان الفاطميين وليؤكد أنه ما زال على قيد الحياة، ولدى وصوله إلى القاهرة حمل الحمام الزاجل بطائق البشرى إلى أنحاء مصر، لتهدئة الخواطر [3].

كان معركة الرملة تجربة قاسية لصلاح الدين تَعَلَّم منها الكثير في مواجهاته التالية، كما كانت أول هزيمة كبرى له ولقواته وآخرها أمام قواد الصليبيين، ومن ناحية أخرى فقد تحقق صلاح الدين من حقيقة أخرى تتعلق بهذه الجبهة مع الصليبيين، وهي طول خطوط الإمدادات والتموين بين مركزه في القاهرة وبين سهول فلسطين وصعوبتها وقلة الماء والعشب فيها. وهذه الحقيقة كانت معروفة لديه وأمرائه والقاضي الفاضل، إذ ضُمّنت في الكتاب الذي وجّهَه إلى دار الخلافة قبل هذه المعركة بثلاث سنوات طالباً التقليد على كل الشام إضافة إلى مصر [4]... وإنّا لا نتمكن بمصر منه - العدو - مع بعد المسافة، وانقطاع العمارة وكَلال الدّواب التي بها على الجهاد القوُة، وإذا جاورناه كانت المصلحة بادية، والمنفعة جامعة، واليُد قادرة، والبلاد قريبة، والعزوة ممكنة، والميرة - التموين - متسعاً والخيل مستريحة والعساكر كثيرة الجموع، والأوقات مساعدة [5]، فجاءت معركة الرملة لتثبت صحة هذا التفكير ومنذ ذلك الوقت قرر صلاح الدين نقل مركزه الدائم، بعد إعادة بناء قوته العسكرية والسياسية إلى دمشق التي كان لقوتها العسكرية، والتي ورث بعضها عن نور الدين وأمرائها وأمرائه، خبرة أطول في مواجهة قوات الصليبيين ومعرفة أفضل بجغرافيتها إضافة إلى قِصر خطوط مواصلاتها وتموينها وطول هذه الخطوط بالنسبة للعدو... وإذ كان الهدف الأساسي في عملياته العسكرية في المستقبل هو تحرير القدس واستعادة الأراضي التي سيطر الصليبيون عليها، فإن دمشق هي القاعدة الأساسية الأكثر مناسبة لمثل هذه العمليات ولذلك جعلها صلاج الدين مركزه الدائم ولا يغادرها إلى مصر إلا لتتفقد أحوالها [6].

---

(1) مفرج الكروب (62/2)، الجيش الأيوبي ص 414.
(2) سنا البرق الشامي (260/1)، الجيش الأيوبي ص 414.
(3) رنسيمان (673/2)، الجيش الأيوبي ص 414.
(4) صلاح الدين القائد وعصره ص 212.
(5) كتاب الروضتين (213/1)، صلاح الدين القائد وعصره ص 213.
(6) صلاح الدين القائد وعصره ص 213.

5 - معركة تل القاضي:

ظل صلاح الدين في مصر عدة أشهر بعد معركة الرملة، حتى تحقَّق له أن كل شيء أضحى تحت سيطرته ثم غادرها متوجهاً إلى دمشق، فوصل إليها يوم السبت في 24شوال عام 574هـ/شهر نيسان عام 1179م، وأمضى بها بقية تلك السنة، وكل ما وقع من حروب آنذاك لم يتجاوز شنَّ بعض الغارات وردَّ بعض الهجمات. والواقع أن صلاح الدين انهمك بحصار بعلبك بعد أن رفض حاكمها محمد بن عبدالملك المعروف بابن المقدم، التنازل عنها لصالح تورانشاه أخي صلاح الدين، لكنه لم يهمل أمر حصن مخاضة الأحزان، وصرَّح لأمرائه أنه إذا أتم الصليبيون بناءه "نزلنا عليه وهدمناه إلى الأساس" [1] وبعد أن فرغ من أمر بعلبك، التفت إلى الحصن، وطلب من الصليبيين أن يهدموه، فطلبوا، مقابل ذلك، النفقات التي بذلوها في تشييده، فعرض عليهم ستين ألف دينار، ثم رفع المبلغ إلى مائة ألف، ولكنهم رفضوا ذلك [2]، وحدث في شهر ذي القعدة عام 574هـ/شهر نيسان عام 1179م أن اعتدى بلدون الرابع على بعض الرعاة المسلمين الذين خرجوا لرعي ماشيتهم في المراعي القريبة من بانياس، وشاركه همفري دي تورون سيدتبين، فأرسل صلاح الدين قوة عسكرية بقيادة ابن أخيه عز الدين فروخشاه ليستطلع الأمر، فاشتبك مع العدو وبالقرب من شقيف أرنون [3]، وانتصر عليه، ولم يتمكن الملك من النجاة إلا بفضل بسالة همفري الذي جرح في المعركة، وتوفي بعد ذلك متأثراً بجراحه، وكانت وفاته خسارة كبرى للصليبيين [4].

وكان صلاح الدين قد خرج من دمشق عندما علم بنبأ الانتصار لحصار حصن بيت الأحزان، لكنه اكتفى بمهاجمة حاميته، إذ بلغت استحكاماته الدفاعية من المتانة ما حمله على الارتداد بعد مضي بضعة أيام، فعسكر عند تلك القاضي في سهل مرجعيون غربي بانياس، وأرسل العساكر للإغارة على الجليل ولبنان لتدمير محصولات الأراضي الواقعة بين صيدا[5] وبيروت أثارت هذه الغارات حفيظة بلدوين الرابع، الذي رأى أنه لابد من وضع حد لها، فجمع قواته، وخرج للتصدي للمسلمين، ودعا ريموند الثالث صاحب طرابلس لمساعدته، وعلم بأن فروخشاه عائد من الساحل بغنيمة كبيرة، فتحرك

---

(1) مفرج الكروب 72/2).
(2) الكامل في التاريخ (439/9 - 441)، تاريخ الأيوبيين ص 127.
(3) شقيف أرنون: قلعة حصينة جداً في كهف من الجبل قرب بانياس.
(4) تاريخ الأيوبيين ص 128.
(5) المصدر نفسه ص 128.

نحو الشمال لاعتراضه في وادي مرجعيون بين نهر الليطاني والمجرى الأعلى لنهر الأردن، غير أن صلاح الدين شاهد تحركه وفي الوقت الذي كان فيه الملك الصليبي يشتبك مع فروخشاه كان ريموند الثالث والداوية يتقدمون نحو نهر الأردن، وعند مدخل الوادي فاجأوا صلاح الدين، فبادر الداوية إلى الاشتباك في القتال على الفور وصمد صلاح الدين في المعركة وبفضل ما طبَّقه من خطط عسكرية أتاح له أن يقوم بهجوم مضاد، وتحقيقه الانتصار ووليَّ الصليبيون الأدبار لا يلوون على شيء، ولما وصلوا إلى الجيش الملكي، وساد الذكر صفوف أفراده، واضطروا إلى الارتداد، ثم لاذوا بالفرار، ووقع كثير منهم في الأسر، كان من بينهم أودو سانت أماند، مقدم الداوية وبلدوين سيد الرملة، وهيو، صاحب الجليل [1].

وقد حدثت المعركة في أوائل عام 575هـ/صيف عام 1179م ولم يستثمر صلاح الدين انتصاره هذا بمهاجمة بيت المقدس؛ لأنه اعتقد أن باستطاعة الملك الصليبي، الذي ما زال طليقاً استدعاء العساكر من مختلف المناطق، فيلتقون من حوله، مما جعل مهمته صعبة وبخاصة أنه وصلت إلى المملكة آنذاك مجموعة قوية من الفرسان الفرنسيين للحج برئاسة هنري الثاني ذي شامبانيا، مما أنعش آمال الصليبيين ورفع من معنوياتهم [2]، واستعاض عن مهاجمة بيت المقدس، بمهاجمة حصن بيت الأحزان في شهر ربيع الأول/شهر أيلول. واستطاع بعد حصار دام خمسة أيام من اقتحامه ودمّره عن آخره وسوّاه بالأرض، كما أغار على المناطق الساحلية: صور وصيدا وبيروت وهاجم أسطوله البحري مدينة عكا ودمّر السفن الراسية فيه [3].

6 - الهدنة بين صلاح الدين وبلدوين الرابع:

ارتفعت خسائر الصليبيين وانزعج بلدوين الرابع من هذه الانتصارات للمسلمين فلم يجد أمامه إلا طلب الهدنة، وبالفعل وافق صلاح الدين على طلب الهدنة وبالفعل وافق صلاح الدين على طلب بلدوين بعقد هدنة بينهما لاعتبارات خاصة لديه ومنها أنه:

- أراد أن يضم حلب إلى سيطرته قبل أن يوجه ضربة حاسمة إلى الصليبيين، وفي الوقت نفسه يتقي شر هجمات الصليبيين أثناء قيامه بمهاجمة حلب.
- ومن هذه الاعتبارات أيضاً رغبته في القيام بحملة على أرمينية.

---

(1) الكامل في التاريخ (439/9)، موسوعة تاريخ العرب ص 128.
(2) تاريخ الأيوبيين ص 128.
(3) تاريخ الأيوبيين ص 129 وليم الصوري (1014/2، 1015).

- أن يبني علاقة مع قلج أرسلان الثاني سلطان سلاجقة الروم تجعله في معسكره أو على الحياد بينه وبين الصليبيين.
- أن يتفرغ لمهاجمة إمارة طرابلس، وقد وصلته أنباء بأن هناك اتصالات بين الصليبيين والبيزنطيين لتجديد التحالف بينهما، وقد هاجم أسطوله أنطرخوس وهي بلد سواحل الشام، وهي آخر أعمال دمشق من البلاد الساحلية [1]، وفتح جزيرة في البحر قرب القسطنطينة يقال لها أرواد، فاضطر ريموند إلى عقد هدنة معه، وطلب الانضمام إليه وجعله من أتباعه، وذلك بسبب خلافاته داخل مملكة بيت المقدس والتي انتهت إلى إقصائه وطرده من حكم المملكة [2] وأما بلدوين الرابع، أصبح منهكاً متعباً وكذلك جنوده بسبب كثرة الاصطدامات بينه وبين صلاح الدين، ولذلك سعى إلى الهدنة لحاجته إليها في تنظيم صفوفه، ومخاطبة حلفاء جدد، وقد تحددت مدة الهدنة بينهما بسنتين، وتبين في ذلك أن الفترة التي سبقت الهدنة كانت هدفها الإغارة على الصليبيين والموافقة على الهدنة لبناء الصفوف الإسلامية وتوجيهها [3].

7 - صلاح الدين والفارس اللص "أرناط":

استفاد صلاح الدين من الهدنة التي وقعها مع حاكم مملكة المقدس لينتقل بنشاطه العسكري، إلى مناطق التواجد الصليبي في شمال بلاد الشام حيث تمت غارات بحرية ناجحة ضد إمارة طرابلس كانت كفيلة بإجبار الصليبيين بقيادة ريموند الثالث على عقد هدنة مع صلاح الدين مدتها خمس بسنوات، 1180 - 1185م [4] وقد أفاد صلاح الدين من إنجازاته العسكرية والسياسية تلك بالتفرغ بهدفه الأساس وهو توحيد بلاد الشام فبدأ بحملاته - التي أشرنا إليها - ضد مناطق الموصل وأتبعها بعد ذلك بحصار حلب والسيطرة عليها، وفي الوقت الذي كانت فيه قوات صلاح الدين تحاصر حلب كانت القوات الإسلامية في مصر تقوم بعمل عسكري موفق على الجبهة الجنوبية في منطقة الداروم (ما بين غزة ومصر) وقد أثبتت مجمل هذه المعارك أن الجبهة الصليبية في هذا الموضع أقصى ما يمكن أن تقوم به هو القدرة على الدفاع عن بعض مناطق سيطرتها وفقدت ميزة القدرة على الهجوم مقارنة بأوضاعها قبل ظهور صلاح الدين الأيوبي

(1) معجم البلدان (270/1)، موسوعة تاريخ العرب ص 82.
(2) الكامل في التاريخ (151/9)، موسوعة تاريخ العرب ص 82.
(3) صلاح الدين في بلاد مصر والشام والجزيرة ص 282.
(4) الحركة الصليبية (753/2).

والاستثناء الذي حصل هي الغازات التي كان يقوم بها حاكم الكرك الصليبي أرناط والذي يعتبر تابعاً لمملكة بيت المقدس [1] وقد عرف أرناط بالفارس اللص حتى عند الفرنج، إذ لم يكن من نوع الفرسان الذين يحرصون على شرفهم ويتمسكون بمبادئ الفروسية، بل كان لا يصلح إلا للنهب والسلب والغدر وشن الإغارات على الأبرياء المسلمين وقد وصفه بعض المؤرخين الأوروبيين أنه نموذج للفارس اللص في عصره، فقد اتصف بالجشع والغدر والوحشية والتعصب الأعمى، ولم تفلح الخمس عشرة سنة التي قضاها أسيراً في حلب لتعديل سلوكه أو تهذيبه [2] وأما المؤرخ أبو شامه فقد وصفه بأنه أغدر الفرنجة وأخبثها وأفحصها عن الردى والرداءة وأنقضها للمواثيق المحكمة والإيمان المبُرمة [3].

وقد تناسى أرناط أمر هدنة معقودة بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس، وخرج على رأس قوة من رجاله، وأوغل في صحراء العرب حتى تيماء [4]، وكان في نيته أن يزحف من تيماء إلى المدينة النبوية للاستيلاء على تلك النواحي الشريفة [5]. إلا أن فرخشاه ابن أخي صلاح الدين ونائبه في دمشق، أسرع إلى غزو الأردن وأعمال الكرك ونهبها، مما جعل أرناط يعود إلى إمارته للدفاع عنها، بعد أن نهب قافلة إسلامية كبيرة كانت متجهة من دمشق إلى مكة وسلب منها ثروة ضخمة [6] ولذلك غضب صلاح الدين وأرسل إلى ملك بيت المقدس يلومه على ما حدث، ويذكره بالهدنة المعقودة بين الطرفين ويطلب منه أن يلزم أرناط برد المسلوبات، والملك - بلدوين الرابع كان مستاء من أرناط أيضاً، فأرسل إليه يطلب إعادة ما سلب من المسلمين وأسراهم، ولكن أرناط سخر من سيده - الملك المريض - ورفض أن يصغى إلى نصحه [7].

كانت حملات أرناط غير موفقة من حيث توقيتها فهي جاءت في وقت كانت فيه قوة صلاح الدين تتعاظم في حين أن مملكة بيت المقدس، والإمارات الصليبية الأخرى تعاني من مشكلات داخلية عصية على الحل، فبذور الشك أصبحت متزايدة بين حاكم مملكة بيت المقدس بلدوين الرابع وبين بوهميند الثالث أمير أنطاكية، وريموند الثالث أمير

(1) دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك ص 95.
(2) الحركة الصليبية، عاشور (617/2)، الجهاد والتجديد ص 231.
(3) كتاب الروضتين (75/2).
(4) الجهاد والتجديد ص 231.
(5) الكامل في التاريخ حوادث سنة 577هـ، الجهاد والتجديد ص 231.
(6) الكامل في التاريخ (153/9)، الجهاد والتجديد ص 231.
(7) الحركة الصليبية (606/2)، الجهاد والتجديد ص 231.

طرابلس كما جاءت في وقت تعاني فيه مملكة بيت المقدس من مشاكل حول صحة بلدوين الرابع ومشكلة وراثة العرش، وعلى الصعيد الخارجي كانت علاقات صلاح الدين تتوثق مع المدن الإيطالية ومع حاكم الإمبراطور البيزنطية ألكيسوس كومنين الثانى، يضاف إلى ذلك أن حملات أرناط جاءت لتؤكد فشل مملكة بيت المقدس في السيطرة على المناطق التابعة لها إذ أن أرناط الذي يُفترض أنه تابع لمملكة بيت المقدس لم يلتزم بالهدنة الموقعة بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس إضافة إلى أن حملات أرناط وما حملته من تهديد للأماكن المقدسة قد عاد بأثر إيجابي على الجبهة الإسلامية، حيث أن هذه التصرفات من قبل أرناط جعلت جميع القوى الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة تقف إلى جانب صلاح الدين [1].

وبدأ صلاح الدين يركز على معاقبة أرناط على كل أفعاله الإجرامية بحق قوافل التجارة والحجيج واتجه لحصار الكرك في أكثر من مرة عام 580هـ/1184م وعام 583هـ/1187م إلى جانب عمليات عسكرية إسلامية على الجبهة الشمالية في مناطق طبرية في عام 583هـ/1187م. جرت هذه التطورات والجبهة الإسلامية الآن مكتملة الوحدة بعد الصلح الذي وقع مع حاكم الموصل، والجبهة الصليبية تعاني من مشكلاتها الداخلية التي ازدادت سوءاً بعد وفاة بلدوين الرابع وتسلم بلدوين الخامس للحكم سنة 1185م وتوفي بعد ذلك لعام 1186م لتدخل بعدها مملكة بيت المقدس في صراع على وراثة الحكم شارك فيه أمير طرابلس ريموند الثالث فثارت شكوك حول وفاة بلدوين الخامس أهي وفاة طبيعية أم أن الأطراف الطامعة في تاج مملكة بيت المقدس كانت وراء هذه الوفاة حيث يشار على أنه مات مسموماً [2]، ووصل الأمر إلى أن أصبح الصليبيون يشكلون معسكرين متعادين حول وراثة حكم مملكة بيت المقدس فريق يؤيد جاي لوزجنان وحكمه للقدس، وفريق آخر معارض لهذا الحكم ويرأسه ريموند الثالث أمير طرابلس وبوهيمند الثالث أمير أنطاكية [3]. في هذه الأوضاع المضطربة داخلياً على الجبهة الصليبية والتي يقابلها وحدة وقوة في الطرف الإسلامي، قام حاكم الكرك أرناط بإثارة مشكلات مع الطرف الإسلامي، حيث عاود أسلوبه غير الملتزم بالهدن والمواثيق واعتدى على قافلة تجارية ما بين دمشق والقاهرة وغنم ونهب ما في القافلة وأسر تجارها وحراسها ولم تفلح جهود صلاح الدين بإقناع أرناط بتسليم الأسرى ورد الغنائم، كما لم

(1) دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك ص 96.
(2) دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك ص97.
(3) المصدر نفسه ص 97.

تُفلح جهود حاكم مملكة بيت المقدس في إحياء أرناط على تسليم مانهبه في القافلة أو إطلاق الأسرى، وقد قاد ذلك إلى رد فعل إسلامي قوي من جانب صلاح الدين قاد إلى معركة حطين ونتائجها التي سنشير إليها لاحقاً [1]، بإذن الله تعالى.

تاسعاً: أهم الدروس والعبر والفوائد ما بين وفاة نور الدين ومعركة حطين:

1 - المدة التي استغرقها صلاح الدين لتوحيد الجبهة الإسلامية:

بعد 12سنة من الجهاد المر أضحى صلاح الدين سيد مصر والشام والموصل وغيرها من بلاد المسلمين واستجمع في يده القوى الحربية طائعة في الغالب ومسايرة في بعض الأحيان وقد تمثلت وسائله لإقامة الجبهة الموحدة بقيادته في عدة أمور بالإضافة إلى اعتماده على المؤسسة العسكرية الأيوبية التي أوجدها [2].

أ – كان يصدر قرارات الأمان لكل من يستسلم بدون قتال على شرط أن تكون العساكر واحدة عند النصرة على العدو الخارجي كما حدث ذلك لحصن كيفا مثلاً [3].

ب – كان صلاح الدين يلقى بواسطة السهام رقاع يكتب عليها عبارات الترغيب والترهيب إلى داخل الحصون الممتنعة لدفع أهلها إلى طلب الاستسلام بعدما يحدث في صفوفهم اضطرابا نفسياً.

ج – كان صلاح الدين يظهر للمدينة القوية الحصينة، بأنه إنما جاء يسكن بقربها وأنه عازم على الاستقرار بجوارها، بعد أن يحاصرها دون أن يعمد إلى الهجوم المباشر عليها، مما يدفع بمن داخل الحصن أو المدينة إلى طلب الأمان أو السعي من أجل الوصول إلى الصلح لدفع قوات صلاح الدين الضخمة من قرب البلد؛ لأنها إن استمرت البلد سوف تلحق أضراراً كبيرة به، وهذا هو الذي حصل فعلاً عن حصار الموصل في المرّة الثالثة سنة 581هـ [4].

ح – وفي بعض الأحيان كان صلاح الدين يقدم تنازلات ويمنح الأموال الوفيرة لأمراء بعض الحصون في سبيل فتح حصونهم دفعاً، للقتال، كما حدث ذلك عند محاصرته حصن حارم وميافارقين [5].

---

(1) المصدر نفسه ص 97.
(2) صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد ص 231.
(3) تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي ص 160.
(4) المصدر نفسه ص 161.
(5) المصدر نفسه ص 161.

د – وأحياناً أخرى كان صلاح الدين يقدم تنازلات ويمنح الأموال الوفيرة لأمراء بعض الحصون في سبيل فتح حصونهم دفعاً للقتال، كما حدث ذلك عند محاصرته حصن حارم وميا فارقين.

س – وأحياناً أخرى كان صلاح الدين يلجأ إلى الأساليب السياسية فيعمد إلى التحالف مع بعض الأمراء الآخرين ليضعف من قوى الخصم ويدفعه إلى طلب الاستسلام، وقد جرب صلاح الدين هذا الأسلوب بتحالفه مع عماد الدين أمير سنجار أخيه عز الدين مسعود أمير الموصل [1]. وبالأساليب السابقة وباستخدام الحرب أحياناً أخرى تمكن صلاح الدين من أن يتم الوحدة ويعد العدة ليبدأ بمرحلة التحرير [2].

2 - السمات العامة لمواقف صلاح الدين في جهوده الوحدوية:

تتمثل السمات العامة في جهود صلاح الدين الوحدوية في عدة أمور منها:

أ- الكرم بالمال واحتقاره:

ويظهر في كثرة ما وهب وأعطى لأتباعه وللوافدين عليه أو المستسلمين لحكمه، أو الموعودين منه بالعطاء، ومسامحته لجميع البلاد التي فتحها بديون الضرائب السابقة، وإلغاء المكوس والمظالم عدا الجبابات الشرعية، ولا شك أن ذلك لعب دوره في اجتذاب الناس إلى صفوفه وفي إسكات خصومه.

ب- خلقه السمح:

فكان يحارب المعادين لقيام الجبهة، فإذا هزمهم لم يسمح باللحاق بهم، ولا بقتل جرحاهم، ويطلق أسراهم ويتسامح أحياناً مع من يعرف أنهم أعداؤه ولا يظهر ذلك بل يغض على بصيرة؛ لأنه يريدهم أن يكونوا بعد الخصومة حلفاء له.

ج- إيمانه الإسلامي العميق:

الذي كان يتمثَّل لا في العبادات فقط، ولكن في الإيمان بأنَّ الجهاد فريضة عليه أولاً وعلى الآخرين، فهو لا يرضى إلا بحملهم عليه.

د- ترك الأمراء لإماراتهم:

أو إطعامها لقواده والمقَّربين أو للأعداء أحياناً لأنه لا يريد بعد ملك مصر وجنداً يقدمون له القوة اللازمة عند الطلب، وهذا ما يفسِّر تنازلاته ومفاوضاته الدبلوماسية

---

(1) تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي ص 161.
(2) المصدر نفسه ص 161.

ومنحه الأمان لمن يعاديه.

لم يظهر في البيت النوري خاصة ولا في أمراء نور الدين الآخرين شخصية سواه قوية قادرة على أن تحقق المبادئ الذي يعمل عليها نور الدين وأبوه من قبله.

هـ- محاولته بجانب كسب الجمهور الإسلامي كسب رضى الخليفة العباسي:

الذي ظلَّ يؤمن أنه مصدر الشرعية الروحية لجميع المسلمين فكان يواليه بالكتب تباعاً بمختلف المواقف يفسرها أحياناً، ويتهم خصومه أحيانا أخرى ويستأذن ثالثة ويُثنّر رابعة دون انقطاع، وتلخص من كل ذلك إلى أن قوة صلاح الدين إنما كانت بالتلاحم بينه وبين الجماهير الإسلامية من خلال أعماله وجهاده وبوقوفه بالدفاع عن مطالب الجماهير المتمثلة في حماية دينها وعقيدتها والتصدي للغزاة وإذا حارب صلاح الدين بعض حكام المسلمين، فإنما حارب فيهم مصالحهم الشخصية الخاصة وسيادتهم وأنانياتهم الصغيرة التي تدمر أحلام الناس لا أشخاصهم وقد قضى في إقامة الجبهة الإسلامية الموحَّدة اثني عشرة سنة (570هـ - 582هـ/1174 - 1186م) وكانت طموحاته خلالها أضخم بكثير من قوى جسمه وأمراضه، فهو عملاق حربي وكتلة أمراض جسدية، وكان حبه للجهاد هو الذي ينسيه آلامه ويجعله يتجاوزها [1].

3 - تكامل شخصيتين في التوحيد والتحرير:

مما تحدثنا به الأحداث والوقائع ندرك بسهولة ويسر أن شخصية نور الدين وشخصية صلاح الدين قد تكاملت جهودهما في توحيد الأمة على الجهاد والتحرير وقد وفقهما الله لذلك وجاء صلاح الدين رحمه الله وهو قائد من قادة نور الدين زنكي وأمير من أمرائه ليكمل مسيرة نور الدين محمود في توحيد الأمة الإسلامية وجمعها على الإيمان والولاء لله ولرسوله والذين آمنوا والبراءة من أعداء الله ورسوله والمؤمنين وقتال الصليبيين وطردهم من بلاد المسلمين ونهض بالأمة علمياً وشرعياً وجهادياً فأقام الحدود والقصاص والتعزير وقضى على الظلم والفساد ثم انطلق بعد أن هيأ الأمة الموحدة للجهاد في الشام ومصر والحجاز والعراق واليمن ليغزو الفرنجة ويطردهم من بلاد المسلمين، وكان صلاح الدين الأيوبي رحمه الله يعلن أنه أخذ كثيراً من أخلاق نور الدين وبخاصة عدله في الحكم وجهاده وقال رحمه الله في عدل نور الدين وأخذه عنه تعقيباً على عدل نور الدين مع من أساء إليه هذا هو الحق وكل ما ترى فينا من عدله

(1) صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد ص 232.

فمنه تعلمناه [1].

وقال أبو شامة في تكامل الشخصيتين فلله درهما من ملكين قد تعاقباً على حسن السيرة وجميل السريرة وهما حنفي وشافعي، شفى الله بهما كل عي، نور الدين أصل ذلك الخير كله مهد الأمور بعدله وهيبته في جميع بلاده، مع شدة الفتق واتساع الخرق، وفتح من البلاد ما استعين به على مداومة الجهاد، فهان على من بعده على الحقيقة سلوك تلك الطريقة، لكن صلاح الدين أكثر جهاداً وأعم بلاداً، صبر وصابر ورابط وثابر، وذخر الله له من الفتوح أنفسه وهو فتح الأرض المقدسة، فرضي الله عنهما أحقهما بقول الشاعر كم ترك الأول للآخر [2] وقال عماد الدين الكاتب في نور الدين وصلاح الدين: فهما جدداً الإسلام بعد دروسه وشيداً بنيان التوحيد بعد طموسه، ثم أيد الله الإسلام بعدهما بالملك الظاهر ركن الدين[3].

4 - توحيد الأمة عن طريق القوة:

إن الوقائع والأحداث جاءت بأن المسلمين عند بدء الحروب الصليبية كانوا متفككين، وكانوا دولاً متنازعة، وإمارات متحاربة، فجاء نور الدين زنكي يجمع الأمة على الجهاد ويوحدها بمخاطبتها بالدليل الشرعي في الوحدة والاعتصام بحبل الله والاجتماع على قتال الصليبيين لتطهير المقدسات وقد بينت الأحداث أن توحيد الأمة لا يقف عند أمنية الناس والشعوب، ولا عند رغبتهم فيها، بل يتعداها إلى وجود حكام مخلصين مؤمنين موحدين يرغبون من كل قلوبهم بتوحيد الأمة ويترجم هذه الرغبة جهود عملية مضنية من هؤلاء الحكام، وجهاد مستمر يبذل فيه الأنفس والأموال، بل ويتعدى ذلك إلى استخدام أسلوب القوة والحرب مع دعاة الانفصال والتمزق والتفرقة وبغير هذا لا يقوم توحيد ولا وحدة، فلا غرور بعد هذه المقدمة الموجزة أن نجد نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي وأسرة زنكي إجمالاً وكذلك الأسرة الأيوبية وفي مقدمتها صلاح الدين الأيوبي قد حملوا راية التوحيد، توحيد الأمة لتكون صفاً في وجوه أعدائها الغازين، ووحدوها على الجهاد في سبيل الله، لقد وحدوها وحزموا كل الحزم في سبيل توحيدها فقاتلوا قتالاً مريراً وحاربوا حروباً كثيرة حتى فتحوا البلاد وطوعوها وطوعوا أمراءها للوحدة، كان الخطاب لهؤلاء الأمراء واضحاً وضوح الشمس في رابعة النهار وكان حازماً كل الحزم، لا هوادة فيه

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (41/1).
(2) المصدر نفسه (26/1 - 28).
(3) مفرج الكروب (193/2)، دروس وتأملات في الحروب الصليبية ص 132.

ولا تراجع، إما الاستجابة للوحدة وإما العزل عن الحكم والإمارة [1].

وقد وجه صلاح الدين الأيوبي سنة 580هـ قبل حطين وقبل تحرير القدس خطابا إلى زين الدين يوسف بن زين الدين علي كوجك بإربل وما يجري معها من البلاد والقلاع وجاء فيه: إنّ الله مكن لنا في الأرض ووفقنا في إعزاز الحق وإظهاره لأداء الفرض، رأينا أن نقدم فرض الجهاد في سبيل الله، فنوضح سبيله، ونقبل على أعداء الدين وننصر قبيله وندعو أولياء الله من بلاد الإسلام إلى غزو أعدائه ونجمع كلمتهم في رفع العليا في أرضه على استنزال نصره في سمائه، فمن ساعدنا على هذه الفريضة واقتناء هذه الفضيلة يحظى من عوارفنا الجزيلة بحسن الصنيعة ونجح الوسيلة، ومن أخلد إلى الأرض واتبع هواه وأعرض عن حق دينه بالإقبال على باطل دنياه فإن تاب ورجع قبلناه، وإن أصر على غوايته أزلنا يده وعزلناه[2].

وها هو ذا التاريخ يعيد نفسه، فالمسلمون ليسوا أمة واحدة وليس لهم دولة واحدة تحكمهم وتدبر أمور حياتهم ولكنهم فرق تفرقوا شذر مذر، قد آلت الأحوال بهم إلى أسوأ مما كانت في الحروب الصليبية التي نتحدث عنها وأصبحت بلادهم نهبة لأعدائهم وخيراتهم ليست لهم، بل وفرضت عليهم مناهج الأعداء وقوانيهم.

إن الإسلام يوجب على دعاة الوحدة أن يجاهدوا دعاة الفرقة ويحملوهم على ذلك إلى أن يذهب بهم ويؤتي بغيرهم والله غني عن العالمين[3].

5 - الوحدة مطلب شعبي عام لا يقف أمامه حاكم انفصالي:

لما رفض حاكم دمشق استقبال صلاح الدين كارهاً للوحدة والجهاد ضد الصليبيين لم يقبل أهل دمشق منه هذا التخاذل واستقبلوا صلاح الدين وجيش صلاح الدين وأصبح النفوذ والحكم لصلاح الدين المجاهد ومن معه [4] وها هو ذا المملوك سرخك حاكم قلعة حارم من أعمال حلب قد امتنع عن تسليمها لصلاح الدين الأيوبي وقد راسله في ذلك توحيداً لقوة المسلمين في جهاد الصليبيين فأبى وأرسل الصليبيين ليحتمي بهم ضد صلاح الدين، فسمع من معه من الأجناد أنه يراسل الصَّليبيين، فخافوا أن يسلمها إليهم وقبضوه وحبسوه، وراسلوا صلاح الدين يطلبون منه الأمان والإقدام، فأجابهم إلى ما

(1) تأملات في الحروب الصليبية ص 136.
(2) كتاب الروضتين (32/2 - 33)، مفرج الكروب (163/2، 164).
(3) دروس وتأملات في الحروب الصليبية ص 137.
(4) الكامل في التاريخ نقلاً عن دروس وتأملات ص 138.

طلبوا، وسلموا إليه الحصن [1].

6 - الوحدة بين مصر والشام وأهميتها:

إن الاتحاد بين مصر والشام لـه أثره الحسن على المسلمين، فهذا يشكل جبهة حربية وقاعدة شعبية عريضة وقوية في التصدي للصليبيين إذا أرادوا غزو أي بلد من البلاد في مصر وفي الشام، فكان إذا اعتدي على أي بلد في مصر هبت جيوش الشام بمساعدة المعتدى عليهم في مصر وذلك إما بإرسال الجيش الشامي للقتال جانب المسلمين في مصر أو بالقيام بالجيش الشامي بفتح جبهة أخرى ضد الصليبيين لتفريق قوتهم وتخفيف الضغط على إخوانهم، وهكذا إذا حدث العدوان على أي بلد من بلاد الشام، يهب الجيش المصري بنجدة إخوانهم على أرض الشام وسيرة صلاح الدين وضحت كيف كان يتعاون الجيش المصري مع الجيش الشامي للتصدي للصليبيين وبخاصة في فتح عسقلان والمدن الساحلية أو الدفاع عنها [2].

وقد تمكن صلاح الدين من تحقيق الوحدة أحياناً بالدبلوماسية، وبالتهديد والترهيب أحياناً أخرى، وبالعمل العسكري المحدود في بعض الأوقات، من تحقيق وحدة مصر وبلاد الشام والقسم الأكبر من بلاد شرق الفرات تحت سيادته وقيادته، وإلزام بقية القوى حتى حدود بلاد العجم بالمشاركة في الجهاد ضد الصليبيين وأتّم ذلك دون تعطيل الجهاد، إذا استمرت العمليات العسكرية الهجومية بقيادته هو بنفسه أو بقيادة أمرائه من القاعدة الرئيسية في دمشق [3].

7 - القاضي الفاضل وجهوده في التوحيد:

كان القاضي الفاضل العالم الكبير المؤثر في دولة صلاح الدين وكان صلاح الدين يشاوره ولا يقطع أمراً دونه ولا يُخفى عنه مكنونه ولا ضميره ولا مكنونه [4]، وكان قلم القاضي يحقق الانتصارات الإعلامية والسياسية والفكرية للدولة الأيوبية سواء في تواصله مع الخليفة العباسي، كما مّر معنا أو التواصل مع الأمة الإسلامية من خلال موسم الحج وكان صلاح الدين يسند إليه مهام إدارية واجتماعية واقتصادية وأمنية بمصر فيقوم بها على خير مقام وكان يراسله ويستفتيه في كثير من الأمور وهذه بعض

---

(1) المصدر نفسه ص 139.
(2) صلاح الدين القائد وعصره ص 203.
(3) البداية والنهاية (576/16).
(4) كتاب الروضتين (6/3).

فصول كتب وردت من القاضي الفاضل صلاح الدين وهو بالشام.

أ - سور القاهرة:

وأما سور القاهرة فعلى ما أمر به المولى شُرع فيه وظهر العمل وطلع البناء وسلكت به الطريق المؤديّة إلى السَّاحل بالمقسم، والله يُعمِّر المولى إلى أن يراه نطاقاً مستديراً على البلدين، وسوراً بل سَواراً يكون به الإسلام مُحلَّى اليدين، مُحَلاً الضّدَيَّن والأمير بهاء الدين قراقوش ملازم الاستحثاث بنفسه ورجاله، لازم لما يعنيه بخلاف أمثاله، قليل التثقيل مع حمله لأعباء التدبير وأثقاله [1].

ب - في حق نقل القضاء من شرف الدين بن أبي عصرون:

ولما ذهب بصره إلى ولده، لن يخلو الأمر من قسمين - والله يختار للمولى خِيْرَة الأقسام ولاينسى هذا التحرج الذي لا يبلغه ملك من ملوك الإسلام - إما إبقاء الأمر باسم الوالد بحيث يبقي رأيه ومشاورته، فتياه وبركته ويتولىَّ ولده النيابة ويشترط عليهما المجازاة لأوّل زلّة، وترك الإقالة لأول عثرة، فطالما بعث حب المنافسة الراجحة على اكتساب الأخلاق الصَّالحة، وإما أن يُفَوَّض الأمر إلى الإمام قطب الدين فهو بقية المشايخ، وصدرُ الأصحاب، ولا يجوز أن يتقدم عليه في بلد إلا من هو أرفع طبقة في العلم منه [2].

ج - ومنها في إقامة عذر التأخر عن الجهاد:

وأما تأسف المولى على أوقات تنقضي عاطلة من الفريضة التي خرج من بيته لأجلها، وتجُّدد العوائق التي لا يوصل إلى آخر حبلها فللمولى نيّةٌ رُشده، وأليس الله العالم بعبده وهو سبحانه لا يسأل الفاعل عن تمام فعله؛ لأنه غير مقدور له ولكن عن النيّة لأنها محلُّ تكليف الطاعة، وعن مقدور صاحبها من الفعل بحسب الاستطاعة، وإذا كان المولى " آخذاً " في أسباب الجهاد وتنظيف الطُّرُق إلى المرُاد فهو في طاعة قد امتنَّ الله عليه بطول أمدها وهو منه على أمل في نجُح موعدها، والثَّواب على قدر مشقتَّه، وإنّما عَظُمَ الحجُّ لأجل جهُده وبعُد شقَّته ولو أنّ المولى فتح الفتوح العظام في أقل الأيَّام، وفصل القضيَّة بين أهل الإسلام وأعداء الإسلام، لكانت تكاليف الجهاد قد قضيت وصحائف البرّ المكتسبة بالمرابطة والانتظار طويت [3].

---

(1) كتاب الروضتين (6/3).
(2) كتاب الروضتين (6/3).
(3) المصدر نفسه (7/3).

د - في ذكر أولاد السلطان:

وقبل الإجابة عن الفصول فنبشّر بما جرت العادة به، لا قطع الله تلك العادة، من سلامة وصحة وعافية شملت موالينا أولاده السَّادة أطاب الله الخبر إليهم عن المولى وإلى المولى عنهم، وعجَّل لقاءه لهم ولقاءهم له، فإنهم من يلق منهم... فهم بحمد الله - بهجة الدنيا وزينتُها وريحان الحياة وزهرتها، وإن فؤاداً وسع فراقهم لواسع وإن قلباً قنع بأخبارهم لقانِع، وإن طرْفاً نام عن البعيد عنهم لهاجع، وإن ملكاً ملكَ تصبُّره عنهم لحازم وإن نعمة الله فيهم لنعمةٌ بها العيش ناعم، أما يشتاق جيْدُ المولى أن يتطوَّق بُدرَرهم؟ أما تظمأ عينه إلى أن تتروَّى بنظرهم؟ أما يحنُّ قلبه على قلبه؟ أما يلتفظ هذا الطائر بتقبيلهم ما خرج من حبه؟ وللمولى - أبقاه الله تعالى - أن يقول:

وما مثلُ هذا الشوق تحمل مُضْغَةٌ ::: ولكنَّ قلبي في الهوى بقلوب

وفي أخرى: والملوك الأولاد في كفالة العافية لا رَفَعت عنهم كفالتها وعليهم جلالة السلطنة لا فارقتهم جَلالتُها، وكلُّ من الموالي السَّادة الأمراء الأولاد، والقِلادة كلُّها جوهر، وكلهُّم المقدَّم، وليس فيهم - بحمد الله - من يؤخرهم على ما عوَّد الله من صحة وسلامة وكفاية ووقاية... والله تعالى يمدُّ في عمر المولى إلى أن يرى من ظهورهم ما رأى جَدُّهم - رحمه الله - في أهل بيته من البطن الرَّابع، فوارس الحرب الرائعة، وملوك الإسلام التي منهم للإسلام أكاسرة وتبابعة:

وما فيهم عِندَ العلاءِ صغير ::: وصغارُ أبناءِ الكِبارِ كبارُ

نجوم الأرض، وذرية بعضها من بعض والخالف الصَّالح المحض وهم في الدُّنيا والآخرة فُرسان القوة والتُّقى يوم الحرب ويوم العرض [1].

ج - ومنها:

وأما المأمور به في معنى المنكرات الظَّاهرة وإزالة أسبابها، وإغلاق أبوابها، وتحصين كل مبتوتة[2] من عصمة وتطهير كل موسومة بوصمة، فالله يثيب المولى ثواب من غَضِبَ ليرُضيه بغضبه وحمل الخَلْقَ على مِنهاج شرعه وأدبه [3].

ح - في إسقاط الضرائب والمكوس على الحجاج

من البشائر التي لا عهد لحاج ديار مصر بمثلها، ولا عهد لملك من ملوك الدِّيار

---

(1) كتاب الروضتين (8/3).
(2) المصدر نفسه (9/3) المبتوتة المرأة المطلقة طلاقاً بائن.
(3) المصدر نفسه (9/3).

المصرية بالحُصول على فخرها وأجرها انقطاع المَكاسين عن جُدَّة وعن بقية السَّواحل ويكفي أن تمام هذه المثوبة موجب الاستطاعة مقيم لحُجَّة، فقد كان الفُتيا على سقوطه مع وجود الجامل، وما أكثر ما أجرى الله للخلائق على يد المولى من الأرزاق، التي تفضل عن الاستحقاق وما أولاه أن يتوخَّى بالمعروف مكانه من هذين الحرمين الشريفين المهجورين من إسعاف أهل الاقتدار، والمحروم من قَدَر فيهما على خير فأضاع فُرصتَهَ بترك البدار، وغير خاف عن مولانا همَّة الفرنج بالقدس بَرًّا وبحراً، ومركبا وظهراً، وسِلمْاً وحرباً، وبُعداً وقرباً، وتوافيهم على حمايته وهو أنف في وجه الإسلام، ومسارعتهم إلى نصرة أهليه بالأرواح والأموال على مَرّ الأيام ومعاذ الله أن يستبصروا في الضَّلال، ونصرف نحن عن الحقّ وتضيق بنا في التوسعة على أهله سعة المجال [1] والمملوك في مستهل رجب بمشيئة الله يُعوّل على السَّفر إلى الحجاز لقضاء الفريضة قولاً وفعلاً، والسائرون في هذه السنة بطمعة وقفة الجمعة وبفسحة وضع المكس خلق لا يحصى والمولى شريك في أجرهم، فليهْنه أن الملوك عمرت بيوتها فخربت، وأنَّ المولى عَمرَ بيت الله، فمن كرمه - سبحانه - أن يَعمرُ بيت المولى، وما أشَّد خجل الملوك من النبي ﷺ في التقصير في قوت جيرانه في هذه السنة[2].

وكانت هذه حجة سنة 574هـ وفي عام 576هـ استأذن القاضي الفاضل صلاح الدين في الحج فوافق السلطان ورد على القاضي الفاضل وكتب إليه: على رأس الرُّقعة في سطر البسلمة، على خيرة الله تعالى:**{يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً}** [3].

وجاء في رواية أن السلطان صلاح الدين رد على طلب القاضي الفاضل كتابياً وجاء فيه على حجة الأول سنة 574هـ: وصلني كتاب القاضي الفاضل وهو يذكر أنه مصمِّمٌ على الحج، الله يجعله مباركاً ميموناً لا يركب بحر، يسير من العسكر إلى أيلة ومنها يتوجّه ويقيم العسكر على أيلة ليلة، وعلى إرَم ليلة ودون ليلة، وقاطع إرَم ليلة، هو قد بَعُدَ وما يبقى عليه خوف إن شاء الله تعالى، وثانية تأخذ يده وتحلفه أنه لا يجاور. وثالثة: تُعطيه من مال الجوالي ثلاثة آلاف دينار وتقول له: لابُدَّ ما تخرج هذا عني لا عنك في المجاورين بمكة والمدينة، وفي أهلها، هذا أمر لابُدَّ منه، فإن النّاس لابُدَّ لهم من الطَّلب، ولابُدَّ من العطاء وإن قال: إن الشيء قليل، فأنت تقرضني هذا المبلغ من مالك وتعطيه إياه، فلا بُدَّ، وإلا فلا إذن له في الرَّوَاح إلى الحج إلا على هذه الشروط التي قد

(1) البرق الشامي (106/3) كتاب الروضتين (11/3).
(2) كتاب الروضتين (11/3).
(3) كتاب الروضتين (24/3) إشارة إلى قوله تعالى:{يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيما} (النساء).

شرطتها وأما مجيئه فيجيء إلى الشَّام، فأنا ما بقي لي دار إلا هي حتى يقضي الله بيننا وبين الفرنج:{وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ} (الأعراف، آية: 87). وكتب القاضي الفاضل إلى بعض مشايخ مكة بعد رجوعه: سقي الله الحجاز وحيَّا كعبته، ويا طول ما ترشقني سهام الشَّوق الذي أصبح الذكر جَعْبَتَهُ آهاً على تلك المواقف، وتبا لمن رضي أن يكون مع الخوالف فَرَعْياً ونُعْمى وحسنة وحُسنى لمجاوري ذاك الحرم ولعامري أيامه التي هي الأيام لا أيام ذي سَلَمٍ فَيَالَهْفَ الصُدور وطول غَلِيلِها إلى وُرودِ ماء زمزَمِهِ وطوبى لمن استضاء في مَضَالّ الظُّلم بَعَلَمِهِ، ومهما نسيت فلا أنسى بَرْدَ الكَبدِ بحرّ صيفها، ومَوسم الأنس بثلاث مِنَاها وخَيْفها:

آهــاً عليهــا ليــالٍ مــا تَــرَكْنَ لنــا ::: إلا الأســى وعُــدلاتِ مــن الحُلُــم
عســى الرِّيــاح إذاً ســارت مبلّغــة ::: توفي فقــد غَــدَرَ الأحبــابُ بالــذِّمَمِ

ثم قال: فأما الطريق المباركة فقد جرى فيها خطوب وشؤون وأحاديث كلها شجون، وكانت العقبى إلى سلامة ولما قاربنا الكَرك نهض العدوُّ، فلم تمكنه الرجعة ولا التعريج جانبا، ثم من الله تعالى بانجلاء النَّوبة ووصلنا إلى بلاد السلطان، ولقينا ذلك الوجه، فلا عَدِمنا بِشره وذلك الفضل فلا فارقت أعينُنا فجره ووجدناه في الغَزَاة جاهداً وللعدو مجاهداً أوقاته مستغرقة، وعزماته محققة [1].

خ - رغبة صلاح الدين في الحج عام 576هـ:

قال العماد: وفيها في رجب وصلت رُسُلُ الدِّيوان العزيز النّاصري صدر الدين شيخ الشيوخ، أبو القاسم عبدالرحيم ومعه شهاب الدين بشير الخاص بالتفويض والتقليد والتَّشريف الجديد فتلقيناهم بالتعظيم والتمجيد وركب السلطان للتلقي وعلى صفحاته بشائر الترقي، فلما تراءى الرُّسل الكرام، ووجب له الإجلال والإعظام، نزل وترجَّل، وأبدى الخضوع وتوجَّل، ونزل الرُّسُلُ إليه، وسلمَّوا عن أمير المؤمنين عليه، فتقبَّل الفرض وقبَّل الأرض، ثم ركبوا، ودخلوا المدينة [2]... وظفر السلطان من صدر الدين بصديق صَدُوق وكان قد عزم على قصد الديار المصرية، وسلوك طريق أيلة والبريَّة، فحَسَّن لشيخ الشيوخ مصاحبته ورغبّه في زيارة قبر الشَّافعي رضي الله عنه فقال: قد عزمت في هذه السنة على الحج، فأضِلُ معكم إلى القاهرة بشرط إقامة يومين ولا أدخلها، وإنما أسكن بالتربة الشَّافعية وأسير منها إلى بحر عَيْذاب [3]، فلعلي أدرك صوم رمضان بمكّة فالتزم

(1) كتاب الروضتين (25/3، 26).
(2) كتاب الروضتين (66/3).
(3) هو البحر الذي يمتد من أرض العرب إلى جُدَّة حتى اليمن.

لـه ذلك وأعاد أصحابه إلى بغداد، ليأتوه من طريقها إلى الحجاز، ورجع شهاب الدين بشير في جواب رسالته ومعه رسوله ضياء الدين الشهرزوري وأنشأ العماد كتاباً في الجواب إلى الدّيوان وفيه: وقد توجَّه الخادِم إلى الديار المصرية لتجديد النَّظر فيها، ثم يستخير الله في الحج وأدائه، ويعود إلى مجاهدة أعدائه [1]. وكتب القاضي الفاضل عن الملك العادل إلى الولاة باليمن يُعلمهم أن ملوك الشرق قد دخلوا في طاعة السُّلطان، وأنه عازم على القدوم على مصر وصوم رمضان بها، والحجّ إلى بيت الحرام منها، ويأمرهم بالاستكثار مما يحمل لأجله إلى مكة من المال والأزوار والخِلعَ مما تشتمل عليه تلك الأعمال [2] وكتب القاضي إلى أمير مكة وأمير ينبع يعلمهما بذلك ليتأهَّبا لقدومه [3]. وكتب القاضي الفاضل إلى السلطان صلاح الدين: جعل الله الملوك ذِمَّة لسيفه وشَّرد منام الأعداء منهم بطيفه، وأمَّن أهل الإسلام بعدله من جور الدهر وحَيْفه وأشهده موقف الحجِّ الأكبر، وزان بمحضره مشهد خَيْفِه [4]، وجعل وفده الأكرم وضيف بيته منتظمين [5]، في هذه السنة في وفده وضيفه، ثم هنَّأه بما فتح الله عليه من محبة الجهاد، وما أثره في بلاد الأرمن وغيرها من البلاد، وما تبع ذلك من نية الحج، بلّغه الله منه المراد [6]، ويبدو أن السلطان سنح لـه الحج مع شيخ الشيوخ، ثم حصل لـه ما منعه [7] منه.

س - مرض صلاح الدين وأثره على مجرى الأحداث:

في عام 581هـ واتفق أنه مرض مرضاً شديداً وهو يتجلد ولا يُظهر شيئاً من التألُّم حتى قوي عليه الأمر وتزايد الحال حتى وصل إلى حرَّان، فَخيَّم هُنالك من شدة ألمه وشاع ذلك في البلاد فخاف الناس عليه وأرجف الكفرة الملحدون وخاف أهل البِّر والمؤمنون، وقصده أخوه أبو بكر العادل من حلب بالأطبَّاء والأدوية، فوجده في غاية الضعف، وأشار عليه بأن يوُصِيَ ويعَهَدَ، فقال: ما أُبالي وأنا أتُركُ من بعدي أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً - يعنى أخاه العادِل صاحب حلبَ، وتقِيَّ الدين عمَر صاحب حماة وهو إذ ذاك نائب مصر، وهو بها مقيم وابنيه العزيز عثمان والأفضل عليا - ثم نذر لله تعالى لئن شفاه الله من مرضه هذا ليصرفنَّ همته كلها إلى قتال الكفار ولا يقاتل بعد ذلك

(1) سنا البرق الشامي (353/1، 254).
(2) كتاب الروضتين (68/3).
(3) المصدر نفسه (68/3).
(4) الخيف: ما انحدر من غلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء.
(5) كتاب الروضتين (68/3).
(6) كتاب الروضتين (68/3).
(7) المصدر نفسه (69/3).

مسلماً وليجلعن أكبر همّه فتح بيت المقدس، ولو صرف في سبيل ذلك جميع ما يملكه من الأموال والذخائر وليقتلنَّ البرنس صاحب الكرك بيده، وذلك لأنه نقض العهد الذي عاهد السلطان عليه فغدر بقافلة من تجار مصر، فأخذ أموالهم وضرب رقابهم صبراً بين يديه، وهو يقول: أين محمدكم ينصركم؟ وكان هذا النذر كله بإشارة القاضي الفاضل - رحمه الله - وهو الذي أرشده إلى ذلك وحثَّه عليه حتى عقد مع الله عز وجل، فشفاه الله عز وجل، وعافاه ممَّا كان ابتلاه به من ذلك المرض الذي كان فيه، كفارة لذنوبه ورفع لدرجته ونصرة للإسلام وأهله، وجاءت البشائر بذلك من كل ناحية وزُيِّنت البلاد ولله الحمد والمنة [1]، وكتب القاضي الفاضل من دمشق وهو مقيم بها إلى المظفَّر تقيِّ الدين عمر نائب مصر لعمّه الناصر، أن العافية الناصرية قد استفاضت أخبارها، وأنوارها وآثارها وولت العِلَّة ولله الحمد، وأطفئت نارُها، وانجلى غُبُارها وخمد شَرارُها وما كانت إلا فلتة وقى الله شرّها، وعظيمة كفى الله الإسلام أمرها وما كان الله ليُضيع الدعاء وقد أخلفته القلوب ولا ليُوقف الإجابة وإنَ سدت طريقها الذنوب ولا ليُخلف وعد فَرَجٍ وقد أيس الصاحبُ والمصحوب.

نعـــيٌّ زاد فيـــه الـــدهر ميمـــا ::: فأصـــبح بعـــد بُؤســـاه نَعيمـــاً
ومـــا صـــدق النـــذير بـــه لأنّـــي ::: رأيـــت الشـــمس تطلـــع والنجومـــا

وقد استقبل مولانا السلطان الملك الناصر العافية غضَّة جديدة والنشاط إلى الجهاد، والجنة مبسوطة البساط وقد انقض الحساب وجُزنا الصِّراط وعُرِضنا نحن على الأهوال التي من خوفها كاد الجهل يلج في سَمِّ الخياط [2]. وقد وصف العماد مرض السلطان صلاح الدين فقال:... والسلطان كلما زاد ألمه زاد في لطف الله أمله، وكلَّما بان ضعفُه قَوِيَ على الله توكُّله، وأنا ملازمه ليلا ونهاراً وسراً وجهاراً وهو يُملي عليَّ في كل وقت وصاياه ويُفَّرق بقلمي على عُفاته عطاياه [3]... وكان خِلقه أحسن ما كان في حال الصحة يخاطبنا بسجاياه السهلة السمَّحة، ولا يخلو مجلسه من أولي فَضلٍ وذوي نباهة ونُبل، يتجاذبون بحضرته أطراف الفوائد، ويهَّزون لمكارمه أعطاف المحامد فتارة في أحكام شرعية، ومسائل فقهية وآونة في صناعات شِعرية، وألفاظ عربية، ومعان أدبية، ومرة في أحاديث الأجواد وشيَم الأمجاد، ودفعة في ذكر فضائل الجهاد، وفرائض التأهب له والاستعداد، وينذر أنه إن خلَّصه الله من نَبْوةِ هذه النوبة، وأعفاه الله من كدر

(1) البداية والنهاية (570/16).
(2) المصدر نفسه (571/16).
(3) كتاب الروضتين (238/3).

هذه المرضة ومرادتها بالعافية الصَّافية الحُلْوة، اشتغل بفتح البيت المقدسى ولو ببذل نفائس الأموال والأنفس، وأنه لا يصرف بقية عمره إلا في قتال أعداء الله، والجهاد في سبيله وإنجاد أهل الإسلام والإقبال على قبيله، وأنه لا يترك شمة الجود والسماحة بالموجود، والوفاء بالعقود، والمحافظة على العهود وإنجاز الموعود، وربما استروح في بعض ساعات الليل أو النهار إلى السماع لإشارة الأطباء به لأجل التفريج والإمتاع ولقد كان ذلك المرض تمحيصاً من الله للذُّنوب وتنزيها، وتذكرةً موقظة من سِنَةِ الغفلة وتنبيهاً [1]. وكانت صادقاته الرّاتبة دارّة، وبالأبرار بارّة على أن جوده مستوعب الموجود ولا يترك فضلاً للوفود [2]... فدفع بالصَّدقه البلاء، ورفع للصَّدق الولاء ونظر الله إلى النيات [3].

8 - وفاة شخصيات مهمة في هذه المرحلة:

أ - وفاة عصمة خاتون:

في عام 572هـ تزوج السلطان صلاح الدين بالست خاتون عصمة الدين بنت معين الدين أنُر وكانت زوجة الملك نور الدين محمود، فأقامت بعده في القلعة محترمة مكَّرمة وَوَلِى تزويجها منه أخوها سعد الدين مسعود بن أنر، وحضر القاضي ابن أبي عصرون العقد ومن معه من العدول، وبات صلاح الدين عندها تلك الليلة والتي بعدها [4] وكانت من أحسن النساء وأعَفّهنَّ وأكثرهنَّ صدقة، وهي واقفة الخاتونية الجُوانية بمحلة حجر الذهب، وخانقاه خاتون ظاهر باب النَّصر في أوَّل الشرف القبلىَّ على بانياس ودُفنت بترُبتها في سفح قاسيون قريباً من قباب الشَّركسَّية وإلى جنبها دار الحديث الأشرفية والأتابكية ولها أوقاف كثيرة غير ذلك وقد توفيت عام 581هـ [5].

ب - وفاة الأمير الكبير سعد الدين مسعود بن مُعين الدين:

كان من الأمراء الكبار أيام نور الدين وصلاح الدين وهو أخو الست خاتون عصمة الدين وحين تزوجَّها صلاح الدين زوّجه أخته السّت ربيعة خاتون بنت أيوب، التي تنسب إليها المدرسة الصلاحية بالسَّفح على الحنابلة، وقد تأخرت مّدتها فتوفيت في سنة ثلاث وأربعين وستمائة، وكانت آخر من بَقى من أولاد أيوب لصُلبه وكانت وفاته بدمشق

(1) كتاب الروضتين (239/3).
(2) المصدر نفسه (240/3).
(3) المصدر نفسه (240/3).
(4) البداية والنهاية 518/016).
(5) المصدر نفسه (573/16).

في جُمادى الآخرة سنة 581هـ - من جُرح أصابه وهو في حصار ميَّافَارقين [1].

ج - وفاة تورانشاه أخو صلاح الدين:

في عام 576هـ توفى أخو السلطان الأكبر الملك المعظم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب الذي افتتح بلاد اليمن عن أمر أخيه صلاح الدين، فمكث فيها حيناً واقتنى منها أموالاً جزيلة، ثم استناب فيها، وأقبل نحو أخيه إلى الشام شوقاً إليه وقد كتب إليه من أثناء الطريق شِعراً عمله له شاعره ابن المنجمّ وكانوا قد وصلوا إلى تيماء.

فهل لأخي بل مالكي علمُ أنَّني ::: إليه وإن طال التردُّد راجع
وإني بيوم واحدٍ من لقائه ::: لُملكي على عُظم المزيَّةِ بائع
ولم يبق إلاّ دون عشرين ليلةً ::: وتجنى المُنى أيصارُنا والمسامع
لدى مَلِكِ تَعْنُو الملوك إذا بدا ::: وتخشع إعظاماً له وهو خاشع
كتبتُ وأشواقي إليك ببعضها ::: تعلمَّت النّواحَ الحمام السَّواجع
وما الملك إلاّ راحة أنت زندُها ::: تضُمُّ على الدنيا ونحن الأصابع [2]

وكان قدومه إليه في سنة إحدى وسبعين فشهد معه مواقف مشهودة وغزوات محمودة واستنابه على دمشق مدة، ثم سار إلى مصر فاستنابه على الإسكندرية فلم توافقه، وكان يعتريه القولنج فمات بها ودفن بقصر الإمارة فيها، ثم نقلته أخته ستُّ الشام بنت أيوب في تابوت إلى دمشق ودفن بالمدرسة الشامية [3] ومعنى تورانشاه: ملك المشرق [4] وكان الملك تورانشاه كريماً جواداً ممدحاً شجاعاً باسلاً عظيم الهيبة كبير النفس واسع الصدر [5]. ولما بلغ خبر موته إلى أخيه السلطان الملك الناصر صلاح الدين وهو مخيم بظاهر حمص، حزن عليه حُزناً شديداً، وجعل ينُشدُ باب المراثي من الحماسة وكانت محفوظة[6].

د - وفاة الملك المنصور عز الدين فروخشاه بن شاهنشاه بن أيوب:

توفي في عام 578هـ وهو صاحب بعلبك ونائب دمشق لعمّه الملك صلاح الدين وهو والد الملك الأمجد بهْرام شاه صاحب بعلبك أيضاً بعد أبيه وكان فرُّوخشاه شهماً شجاعاً بطلاً عاقلاً

(1) البداية والنهاية (573/16).
(2) المصدر نفسه (546/16).
(3) سير أعلام النبلاء (53/21).
(4) المصدر نفسه (53/21).
(5) البداية والنهاية (546/16).
(6) المصدر نفسه (546/16).

ذكياً فاضلاً كريما ممُدَّحاً، امتدحه الشعراء لجوده وفضله وإحسانه وكان من أكابر أصحاب الشيخ تاج الدين أبي اليمن الكندي وله في الكندي مدائح، ومن مواقفه التي تدل على شهامته ومروءته أنه دخل يوماً إلى الحمَّام فرأى رجلا كان يعرفه من أصحاب الأموال، وقد نزل به الحال حتى إنه تستَّر ببعض يديه حتى لا يبدو جسمه، فرق له وأمر غلامه أن ينقل بقُجة وبساطاً إلى موضع الرجل وأحضر له بغلة وألف دينار وتوقيعاً له في كل شهر بعشرين ديناراً، فدخل الرجل من أفقر الناس وخرج وهو من أغنى الناس فرحمة الله على الأجواد الأكياس [1].

س - وفاة أحمد الرفاعي مؤسس الرفاعية:

هو الإمام، القدوة العابد، الزاهد، شيخ العارفين، أبو العباس أحمد بن أبي الحسن علي بن أحمد الرفاعي المغربيُّ ثم البطائحي، قدم أبوه من المغرب، وسكن البطائح، بقرية أُمّ عبيدة، وتزوج بأخت منصور الزاهد ورزق منها الشيخ أحمد وإخوته، وكان أبو الحسن مقرئاً يؤمُّ بالشيخ منصور، فتوفي وابنه أحمد حمل فربّاه خاله، فقيل: كان مولده في أول سنة خمس مئة، قيل: إنه أقسم على أصحابه إن كان فيه عيب يُنبِّهونه عليه فقال الشيخ عمر الفاروثيُّ: يا سيِّدي أنا أعلم فيك عيبا. قال: ما هو؟ قال: يا سيِّدي، عيبُك أننا من أصحابك، فبكى الشيخ والفقراء، وقال: أي عمر: إن سَلِم المركب حمل من فيه، وقيل: إن هرة نامت على كم الشيخ أحمد، وقامت الصلاة فقص كُمَّهُ وما أزعجها، ثم قَعد، فوصله وقال: ما تغير شيء وقال: أقرب الطريق الانكسار والذُّلُّ والافتقار؛ تُعظِّم أمر الله وتشفق على خلق الله وتقتدى بسنة رسول الله ﷺ [2]، وكان لا يقوم للرؤساء ويقول: النَّظر إلى وجوههم يُقسِّي القلب، وكان كثير الاستغفار، عالي المقدار، رقيق القلب، غزير الإخلاص، توفي سنة ثمان وسبعة وخمس مئة في جمادى الأولى [3].

9 - ما قيل من شعر:

أ - في وقعة مرج العيون:

قال الشاعر ابن التّعاويذي في مدح صلاح الدين:

كاد الأعادي أن يُصيبك كيدُها ::: لو لم تَكِدْك برَأيها المأفون

---

(1) المصدر نفسه (559/16).
(2) سير أعلام النبلاء (79/21).
(3) المصدر نفسه (80/21).

تُخفي عداوَتها وراء بشاشة ::: فَتَشِفُّ عن نظر لها مشفون [1]
دَفَنت حبائل مَكْرِها فرددتها ::: تدوى بغيط صُدُورها المدفون
وعلمت ما أخفوا كأنَّ قُلُوبَهُم ::: أفضت إليك بسِّرها المخرون
كمنوا وكم لك في كمين سعادة ::: في الغيب يظهر من وراء كمين
فهوت نجوم سُعُودِهِم وقضى لهم ::: بالنحس طائرهم بمرج عيون [2]

وجاء في تلك القصيدة:

أضحت دمشقُ وقد حَلَلْت بجوِّها ::: مأوى الطريد ومَوْئِل المسكين
لك عفةٌ في قُدرةٍ وتواضعٌ ::: في عزة وشراسة في لين
وأريتنا بجميل صُنعِكَ ما روى ::: الرَّاوون عن أُمَمٍ خلت وقرون
وَضَمِنْت أن تُحيي لنا أيَّامهم ::: بالمكرمات فكنت خير ضمين [3]

ب - ما قاله أسامة بن منقذ في مدح صلاح الدين:

جاء أسامة بن منقذ إلى دمشق في عام 570هـ وقال:

حمدتُ على طول عُمري المشيبا ::: وإن كنت أكثرت فيه الذّنوبا
لأني حَييتُ إلى أن لقِيتُ ::: بعد العدوِّ صديقاً حبيبا [4]

10 - موقف العلماء ممن يسب الصحابة:

في عام 574هـ احتيط ببغداد على شاعر للرّوافض، يقال له: ابنُ قرايا. يقف في الأسواق ويذكر أشعاراً يُضَمّنها ذمَّ الصحابة رضي الله عنهم، وسَبَّهم وتجويَرهم، وتهجين من أحبَّهم فعُقِد له مجلس بأمر الخليفة واستنُطق فإذا هو رافضي جلد داهية فأفتى الفقهاء بقطع لسانه ويديه فَفُعل به ذلك، ثم اختطفته العامّة فما زالوا يرمونه حتى ألقى نفسه في دجلة فاستخرجوه منها وقتلوه حتى مات، فأخذوا شريطاً وربطوه في رجليه وطوَّفوا به في البلد يجُرجرونه في أكنافها، ثم ألقوه في بعض الأتُونات مع الآجُرّ والكِلس [5]، وعجز الشُّرط عن تخليصه منهم [6].

11 - دخول صلاح الدين بلاد الأرمن:

---

(1) مشفون: من الشفن أن يرفع الإنسان طرفه ناظراً إلى الشيء كالكاره له أو المبغض.
(2) كتاب الروضتين (33/3).
(3) كتاب الروضتين (34/3).
(4) كتاب الروضتين (433/2).
(5) البداية والنهاية (531/16)، الكلس: ما طلي به الحائط.
(6) البداية والنهاية (531/16).

في سنة 576هـ وفيها هادن السلطان صلاح الدين الفرنج وتوجَّه إلى بلد الرُّوم فأصلح بين نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود بن أرتق صاحب حصن كيفا، وبين السلطان عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان واجتمعوا على نهر يُقال له كوك سُو [1]، وكثرت ثم الهدايا والدَّعوات، والأفراح والهبات [2] وفيها دخل السلطان بلاد الأرمن لقلع ملكهم ابن لاون، لأنه كان استمال قوماً من التركمان حتى يرعوا في مراعي بلاده بالأمان، ثم صَبَّحهم بغدره وحَصَلوا بأسرهم في أسره، فدخل السلطان بلاده، وأذل أعوانه وأجناده ونصر الله المسلمين بالرُّعب، فأحرق من الخوف قلعة شامخة تُعرف بالما نقير، وبادر المسلمون إلى إخراج ما فيها من الآلات والغلات فتقوَّوا بها وتمموا هدمها إلى الأساسي [3]، وأذعن الأرمني وذلَّ وأطلق ما بيده من الأسارى ورجع السلطان مؤيّداً منصوراً ووصل إلى حماة في أواخر جُمادى الآخرة [4].

12 - المنجمون وهلاك العالم:

في سنة 582هـ، كان المنجمون في جميع البلاد يحكمون بخراب العالم في هذه السنة في شعبان عند اجتماع الكواكب الستة في الميزان بطوفان الريح في سائر البلدان، وخَّوفوا بذلك من لا وثوق له باليقين ولا إحكام له في الدين، من ملوك الأعاجم والروم وأشعروهم من تأثيرات النجوم، فشرعوا في حفر مغارات في التخوم، وتعميق بيوت في الأسراب وتوثيقها وسَّد منافسها على الرّيح وقطع طريقها ونقلوا إليها الماء والأزواد وانتقلوا إليها وانتظروا الميعاد وكلمَّا سمعنا أخبارهم استغربنا في الضحك من عقولهم، وصلاح الدين متنمرٌ من أباطيل المنجمين موقن أن قولهم مبنيٌّ على الكذب والتخمين، فلما كانت الليلة التي عيَّنها المنجمون لمثل ريح عاد [5] ووصف لنا العماد تلك الليلة فقال: وقد شارفنا الميعاد ونحن جلوس عند السلطان في فضاء واسع، وناد للشموع الزّاهرات جامع، وما يتحرك لنا نسيم ولا لسرح الهواء في رعي منابت الأنوار مُسِيْمُ وما رأينا ليلة مثلها في ركودها وركونها وهدوّها وهدونها [6].

13 - مراعاة الخليفة العباسي لرعاياه من اليهود:

---

(1) هو النهر الأزرق من فروع الفرات في طرف بلاد الروم من جهة حلب.
(2) كتاب الروضتين (55/3).
(3) المصدر نفسه (55/3).
(4) سنا البرق الشامي (347/1، 348).
(5) كتاب الروضتين (264/3).
(6) المصدر نفسه (264/3).

وفي سنة 573هـ جرت فتنة عظيمة بين اليهود والعامّة ببغداد، وكانت بسبب أن مؤذنا عند كنيسة اليهود نال منه بعض اليهود بكلام، فشتمه المسلم فاقتتلا، فجاء المؤذن يشتكي منه إلى الديوان وتفاقم الحال، وكثرت العوام وأكثروا الضَّجيج، ولمَّا كان يوم الجمعة مَنعِت العامة إقامة الخطبة في بعض الجوامع وخرجوا من فورهم، فنهبوا سوق العطّارين الذي فيه اليهود وذهبوا إلى كنيسة اليهود فنَهبوها، ولم يتمكن الشُّرط من رَدّهم فأمر الخليفة بصلب بعض العامة، فأخرج في الليل جماعة من الشُّطار الذين كانوا في الحبوس وقد وجب عليهم القتل فصُلبوا، فظنَّ كثير من الناس أن هذا كان بسبب هذه الكائنة، فسكنت الفتنة ولله الحمد [1].

14 - مقتل وزير الخليفة عضد الدولة:

وفي سنة 573هـ خرج وزير الخليفة عضد الدولة ابن رئيس الرُّؤساء ابن المسُلمةِ قاصداً الحج وخرج الناس في خدمته ليَودّعوه، فتقدم إليه ثلاثة من الباطنية في صورة فقراء ومعهم قِصَصٌ فتقدم أحدهم ليُناوله القصة فضربه بالسكين ضَربات وهجم الثاني، وكذا الثالث فهبروه وجرحوا جماعة حوله وقُتل الثلاثة من فورهم وحَرّقوا ورجع الوزير إلى منزله محمولاً فمات من يومه وهذا الوزير هو الذي قتل ولَدَى الوزير ابن هُبيرة وأعدمهما، فسلط الله عليه من قتله وكما تدين تدان، جزاء وفاقا: **{وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ}** (فصلت، آية: 46)[2].

15 - تعويض الله لخلقه:

استهلت سنة 577هـ والملك الناصر صلاح الدين مقيم بالقاهرة مواظب على سماع الأحاديث جاء كتاب من نائبه بالشام عز الدين فرُّوخشاه بما من الله تعالى به على الناس من كثرة ولادة النساء من التوائم جبراً لما أصابهم في العام الماضي من الوباء والفناء، وأن الشام مُخصِبٌ بإذن الله جبراً لما كان أصابهم من الجدب والغلاء [3].

16 - ترتيب صلاح الدين لأموره الإدارية والعسكرية قبل حطين:

عاد صلاح الدين من شرق الفرات إلى دمشق يوم 2 ربيع الأول 582هـ فاستقبل استقبالاً كبيراً من عامة الناس وخاصتهم، العامّة احتفالاً بشفائه من المرض الذي كثرت حوله الأراجيف واشتد القلق، والخاصة احتفاءً بمثل ذلك وبتحقيقه الهدف الذي جمع

(1) البداية والنهاية (525/16).
(2) المصدر نفسه (525/16).
(3) المصدر نفسه (551/16).

كلمة المسلمين بتوحيد البلاد التي تُشَكّل قلب العالم الإسلامي بقيادة الخليفة العباسي في العراق وقيادة السلطان بتفويض الخليفة وعلاماته على كتبه في كل الجزيرة الفراتية والشام ومصر واليمن وغيرها، وكان أول من اجتمع به، بعد أهله، وزيره الكبير ومستشاره الخطيره وعقل دولته المُدَبّر، القاضي الفاضل [1].

يذكر العماد:.. واجتمع السلطان في القلعة بأهله، وأقلع المرجف عن جهله وحسنت الأحوال وشاهدنا الفضل والكرم بالمشاهد الفاضِلِيَّة واجتمع السلطان به فَبثَّه أسراره واستذال بصفو رأيه أكداره، ودخل جنّته وجنى ثماره، وزاره مّرة واستزاره، وراجعه في مصالح دولته واستشاره [2] فما الذي حققه صلاح الدين في حملته على البلاد الموصليَّة؟ وما الإجراءات الإدارية والعسكرية التي قام بها بعد عودته إلى دمشق لترتيب دولته والاستعداد للمواجهة الكبرى؟.

أ- تّم الصلح مع صاحب الموصل من آل زنكي، وقطعت الخطبة السلجوقية فيها وخطب للسلطان صلاح الدين بعد الخليفة العباسي وتنازل للسلطان عن كل ما وراء نهر الزاب "من البلاد والحصون والقلاع والضياع وشهرزور، ومعاقلها وأعمالها، وولاية بني قفجاق وولاية القرابلي والبوازيج وعانة"، مقابل إبقاء الموصل وأعمالها بيده، على أن يكون بحُكْمِنا ويُنفذ عسكره إلى خِدمتنا وتكون الخطبة والسّكة باسمنا [3].

ب- تمت الخطبة والسكة والطاعة لصلاح الدين في بلاد الجزيرة الأخرى، وديار بكر خاصة التي كانت بيد بني أرتق، وتقديم العساكر لمساعدة السلطان في الجهاد عند الطلب، لأن العزائم إلى الجهاد في سبيل الله نوازع، وقد زالت العوائق وارتفعت الموانع [4].

ج- أضاف صلاح الدين الرّها وقلعتها وولايتها إلى إقطاع كُوكْبُري بن زين الدين علي كوجك الذي كان أول من سانده في عمليات شرق الفرات منذ البداية، وذلك لتوفره في الخدمة السلطانية على حفظ القوانين، وظهر منه ما حقق به الاستظهار وأوجب لأمره الإمرار [5]. وكان هو الأمير الذي عهد إليه قيادة كل

---

(1) صلاح الدين القائد وعصره ص 263.
(2) كتاب الروضتين (69/2).
(3) المصدر نفسه (64/2).
(4) صلاح الدين القائد وعصره ص 264.
(5) كتاب الروضتين نقلاً عن صلاح الدين القائد وعصره ص 264.

القوات الشرقية في معركة حطين [1].

د- ألغى السلطان المكوس - الضرائب غير الشرعية - في كل البلاد التي خضعت لسلطته المباشرة أو التي خضعت له بصورة غير مباشرة، فهذا هو: دأب السلطان في جميع البلاد واقتصر منها على الرسوم التي يبيحها الشرع، وهي الخراج والأُجُور والزرع[2] وغيرها.

وأما أمور بيته الخاصة وبيت عمه فقد اتّخذ إجراءات أولى في حلب وصحب معه العادل إلى دمشق حتى يتقرر الأمر في التراتيب النهائية بعد التشاور مع القاضي الفاضل وغيره وفي الطريق رتّب أمور حمص التي توفي صاحبها ابن شيركوه، فعين ابنه مكانه وألزمه بحفظ الثغر الحدودي هناك كما ألزمه بالتقيد بالضرائب الشرعية. وأمضى صلاح الدين بقية سنة 582هـ/حزيران 1187 - آذار 1187م في استكمال التراتيب الإدارية والاستعدادات العسكرية في مصر وبلاد الشام.

- عين صلاح الدين ابنه الظاهر غازي على حلب مكان أخيه الملك العادل، والد زوجة الظاهر، باتفاق بين الأخوين، وولّى قلعة حلب الأمير بشارة والمدينة الأمير شجاع الدين عيسى بن بلاشو [3].

- استدعى الملك الأفضل، ابنه الأكبر، في مصر إلى دمشق ليعينه نائباً فيها، وعين ابنه العزيز عثمان نائباً في مصر ورتّب معه أخِاه الملك العادل لإدارة مصر، وأقطعه إقطاعاً مناسباً فيها رضي به العادل عن طيب خاطر.

- وأثار هذا الإجراء الأخير تقي الدين عمر ابن أخيه الذي قّرر التوجه إلى المغرب والسيطرة عليه وإقامة ملك فيه، لكن ذلك سيؤثر حتماً على مخططات صلاح الدين العسكرية، إذ كان تقي الدين من أبرز رجال دولته وقادة عسكره ومشورته، فأرسل صلاح الدين إليه يسترضيه ومما يؤثر عن السلطان قوله: لعمري إن فتح المغرب مهم، لكن فتح بيت المقدس أهم، والفائدة به أتّم، والمصلحة منه أخصُّ وأعم وإذ توجه تقي الدين، واستصحب معه رجالنا المعروفة، ذهب العمر في اقتناء الرّجال وإذا فتحنا القدس الساحل طوينا إلى تلك المماليك المراحل [4].

ثمّ كتب إلى تقي الدين يأمره بالقدوم إلى الشام، كما كتب القاضي الفاضل إليه أيضاً

---

(1) كتاب الروضتين نقلاً عن صلاح الدين القائد وعصره ص 265.
(2) المصدر نفسه.
(3) المصدر نفسه ص 265.
(4) صلاح الدين القائد وعصره ص 266.

وقول القاضي مسموع: سبب هذه الخدمة "الكتاب" ما اتصّل بالمملوك "القاضي الفاضل" من تَرَدُّدِ رسائل مولانا في التماس السفر إلى المغرب يا مولانا ما هذا الواقع الذي وقع وما هذا العَريم من الهّم الذي ما اندفع بالأمس ما كان لكم في الدنيا إلا البُلْغة واليوم قد وهب الله هذه النّعمة، وقد كان الشَّمل مجموعاً والهّم مقطوعاً ممنوعاً، أفتصبح الآن الدنيا ضيّقة علينا وقد وسعت، والأسباب بنا مقطوعة، لا والله ما انقطعت يا مولانا إلى أين؟ وما الغاية؟ وهل نحن في ضائقة عيش أو في قلة من عَدَد؟ أو في عدم من بلاد؟ أو في شكوى من عدم؟ كيف تختار على الله وقد اختار لنا؟ وكيف نُدَبّر لأنفسنا وهو قد دبّر لنا؟ وكيف ننتجع الجَدْب ونحن في دار الخصْب؟ وكيف نَعْدِل إلى حرب الإسلام المنهَّى عنها ونحن في المدْعُو إليها من حَرْب أهل الحرب؟ معاشر الخُدّام والجيش وأرباب العقول والآراء أليس فيكم رجل رشيد:

تعقّب الرأي وانظر في أواخره ::: فطالما اهمت قدما أوائله

لازال مولانا يمضي الآراء الصائبة، ويلحظها بادية وعاقبة، ولا خلت منه دار إن خلت، ولا عَدِمته أيام إنْ لم تطلع فيها شمس وجهه دخلت في عداد الليالي فلم تذكر[1]، فكيف يستطيع الأمير الكبير بعده هذه الحجج ألا يستجيب للأمر السلطاني فيتوجّه بجميع أهله وعساكره إلى دمشق فتلقاه السلطان في مرج الصُفّر في 23 شعبان 582هـ، 10تشرين الثاني 1186م ودخلا معاً إلى دمشق وأقطعه السلطان حماة وبلادها وأمره بحماية ثغورها فتوجه إليها حتى تأتيه أوامر السلطان.

وبهذه التراتيب المحكمة تمكّن صلاح الدين والقاضي الفاضل من ترتيب أمور الدولة من أقصى شرقها إلى أقصى غربها، وتفَّرغ للاستعداد والتجهيز لحملته الكبرى التي كان ينتظر قدوم وقتها وفي ذات الوقت كانت الأوضاع السياسية في مملكة الصليبيين تزداد سوءاً والخلاف بين حزب البارونات النبلاء وحزب الملك ومؤيديه يبلغ أوجه ممّا دفع الكونت ريموند الثالث، الذي أبُعد عن وصاية العرش بتتويج غي دي لوزيجنيان زوج الملكة الوارثة للعرش، إلى مهادنة صلاح الدين عن بلاده (طرابلس) وبلاد زوجته (طبّرية) بحيث قبل عنه.

في المصادر العربية:... فالتجأ إلى ظل السلطان، فصار له من جملة الأتباع فقبله السلطان وقَواه وشدّ عضده بإطلاق من كان في الأسر من أصحابه، فقويت مُنَاصحته للمسلمين، وكان السبب الذي دفع ريموند إلى ذلك الاتفاق هو أن مقدم الداوية نصح

(1) المصدر نفسه ص 267.

الملك غي بجميع القوات ومحاصرة ريموند وإجباره على الاستسلام، فنفذ الملك عملية جمع القوات، لكن باليان بن بارزان - صاحب نابلس - أقنعه بخطأ هذه الحركة - ففرق القوات وعاد إلى القدس وأقام صلاح الدين في دمشق ينتظر الفُرصة المناسبة لجمع العساكر والتوجّه إلى ميدان القتال، فكان الاستيلاء على القافلة القادمة من مصر إلى الشام وفشل المفاوضات بين السلطان وأرناط والملك في حَلّ المشكلة وبدأ الجانبان الاستعداد والتجهز وكتب السلطان إلى العساكر في الموصل والجزيرة الفراتية وحلب وحماة ومصر طالباً منها القدوم: الشرقية والحلبية إلى الاجتماع برأس الماء، المخيم المعتاد لدى صلاح الدين ومركز الاجتماع للانطلاق والمصرية بقيادة أخيه العادل إلى بلاد الكرك والشوبك، أما السلطان فخرج إلى جسر الخشب وقام هناك حتى يتكامل تجمع قوات دمشق لديه [1].

* * * * *

(1) صلاح الدين القائد وعصره ص 268.